

سُورَةُ الْحَشْرِ

حِينَ تَنْكَشِفُ حُصُونُ الْأَرْضِ
وَيَطْلُعُ نُورُ الْأَسْمَاءِ فِي الْقَلْبِ



تَأْلِيفُ: رَدَّادِ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْحَشْرِ

حِينَ تَنْكَشِفُ حُصُونُ الْأَرْضِ وَيُطْلَعُ نُورُ الْأَسْمَاءِ فِي الْقَلْبِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

السورة التي تهدم الحصون لتبني القلب

ليست سورة الحشر حكاية قوم أُخرجوا من ديارهم فحسب، ولا سجلاً تاريخياً لمعركة انتهت بانتهاء زمنها، بل هي سورة تكشف قانوناً من قوانين الله في النفوس والمجتمعات؛ قانوناً يقول إن الحصون التي يبنها الإنسان حول ضعفه قد تمتنع عنه عيون الناس، لكنها لا تمتنع عنه قَدَرُ الله، وإن القوة التي لا تنصل بالحق قد تبدو راسخة في ظاهرها، بينما تكون قد بدأت تنداعى من داخلها قبل أن تمتد إليها يد من خارجها. إنها سورة سقوط الأوهام الثقيلة: وهم المال، وهم الجماعة، وهم التحالف، وهم الحصانة، وهم أن التدبير البشري يستطيع أن يغلق الأبواب في وجه أمر الله. ثم لا تكفي السورة بهدم هذه الأوهام، بل تمضي بالقلب من مشهد البيوت المخربة، والجدران المتداعية، والقلوب المقذوف فيها الرعب، إلى مشهد آخر بالغ الصفاء والجلال: مشهد الأسماء الحسنى وهي تتوالى في ختام السورة، كأن الخراب الذي رأيناه في أولها لم يكن إلا إزاحةً للأنقاض عن عين القلب حتى ترى من هو الله.

تبدأ السورة بتسبيح الوجود، وتنتهي بتسبيحه، وبين التسبيحين تاريخٌ يُحَاكَم، ونفوسٌ تُكشَف، وأموالٌ توزع، ومجتمعاتٌ تبني، وضمايرٌ توزن، وقلوبٌ تُسأل: ماذا قدمت لعدو؟ وكان التسبيح ليس افتتاحاً لفظياً ولا خاتمةً إيقاعية، بل هو الإطار الكوني الذي تقع داخله الأحداث كلها؛ فما يجري في الأرض، من نصرٍ وهزيمة، وإقامةٍ ورحيل، وغنىٍ وفقْر، واجتماعٍ وافتراق، ليس خارجاً عن ملك الله وحكمته، وإنما هو جزء من حركة الوجود نحو غايته التي يعلمها الحكيم العزيز. وإذا كان كل ما في السماوات والأرض يسبح لله، فإن المأساة الكبرى أن يعيش الإنسان في كونٍ ساجد، بينما يظل قلبه واقفاً في محراب ذاته، يسبح بحمد قوته، ويشق بحصونه، ويعبد تقديراته، حتى يأتيه أمر الله من حيث لم يحتسب، فيعرف متأخراً أن الوجود كله كان يقول له: ليس لك من الأمر شيء.

وسنخفي في هذه السورة آيةً آية، لا لنعيد سرد ألفاظها في لغة أخرى، بل لندخل إلى منازلها الداخلية، ونقف عند حركاتها الخفية، ونرى كيف تنتقل من حديث الجماعات إلى تربية الفرد، ومن قسمة الأموال إلى قسمة الأخلاق، ومن المنافقين الذين يعدون ولا يفون إلى المؤمنين الذين يؤثرون ولو كان بهم خصاصة، ومن نسيان الله إلى نسيان النفس، ومن خشوع الجبل إلى قسوة القلب، حتى تبلغ بنا الرحلة مقام المعرفة بالله؛ حيث تتراجع الأشياء كلها إلى أحجامها الحقيقية، ويبقى الله في القلب أكبر من كل حصن، وأقرب من كل أمل، وأجل من كل تصور.

الآية الأولى: الكون الذي لا يصمت عن الله

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^ط وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

تفتح السورة أبوابها على صوت لا تلتقطه الأذن وحدها، وإنما يلتقطه القلب حين يهدأ من ضجيجهِ؛ صوت السماوات والأرض وهي تسبح لله. وليس التعبير القرآني هنا دعوة إلى التسبيح فحسب، بل هو إخبار عن حقيقة كونية واقعة: لقد سَبِّحَ لله ما في السماوات وما في الأرض، فالوجود لم يبدأ غافلاً ثم تعلم الذكر، ولم يكن صامتاً حتى جاء الإنسان يلقنه أسماء الله، بل خلقت الأشياء وهي تحمل في ذواتها شهادة افتقارها إلى خالقها، وتعلن بوجودها المحدود عن كمال موجدها، وتحرك في مداراتها ومقاديرها وفق قانون العبودية الذي لا تتمرد عليه ذرة. فالنجوم في مساراتها تسبح، وتعاقب الليل والنهار تسبح، وانحناء الغصن للريح تسبح، وانحدار الماء إلى الأرض العطشى تسبح، ونبض القلب الذي لا يستأذن صاحبه تسبح، وكل مخلوق يؤدي الوظيفة التي أودعها الله فيه إنما ينطق بلغته الخاصة بأن الملك لله، والتدبير لله، والكمال لله.

وجاء الفعل بصيغة الماضي: ﴿سَبِّحَ﴾، كأن التسبيح حقيقة متقدمة على الحوادث التي سترونها السورة، وكأن الله يريد أن يضع قلب القارئ منذ اللحظة الأولى فوق ربوة عالية يرى منها الحدث الأرضي داخل النظام الكوني الأكبر. فقبل أن نرى بني النصير يخرجون من ديارهم، وقبل أن نرى المؤمنين والمنافقين، والأموال والحصون والجدران، ينبغي أن نعرف أن الوجود قد حسم موقفه من قبل: كل شيء لله، وكل شيء خاضع له، وكل قوة لا تنتمي إلى هذا التسبيح ليست إلا نشازاً عابراً في لحن الكون الواسع. قد يرتفع صوتها حيناً، وقد تملأ العيون بهيبتها المصنوعة، ولكنها لا تستطيع أن تغير النعمة الأصلية التي خلق عليها الوجود؛ إذ لا يبقى في النهاية إلا ما وافق الحق، أما الباطل فهما انتفخ في الأرض يظل غريباً عن فطرة الكون، ولهذا يحمل في داخله بذرة سقوطه.

ثم يجيء الاسمان الجليلان: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ليكشف السر الذي ستدور عليه السورة كلها. فهو العزيز الذي لا تغالب إرادته، ولا تستعصي على سلطانه حصون، ولا تحول بين أمره وبين نفاذه كثرة عدد ولا عدد، وهو الحكيم الذي لا يجري قضاءه عبثاً، ولا يهدم إلا لحكمة، ولا يخرج قوماً ولا يبقى آخرين إلا بعلم محيط ومقدار موزون. والعزة وحدها في التصور البشري قد توهم البطش المجرد، والحكمة وحدها قد بتخليها الإنسان هادئة عاجزة عن إنفاذ ما ترى، فجاء اقتران الاسمين ليقرر أن قدرة الله لا تنفصل عن حكمته، وأن حكمته ليست فكرة لا سلطان لها، بل هي حكمة العزيز الذي إذا أراد شيئاً أمضاه، وإذا قضى أمراً لم ترده الحصون ولا الجيوش ولا التحالفات.

وهذه الآية لا تريد منك أن تتأمل تسبيح الكون بعيداً عن نفسك، بل أن تسأل: هل ينسجم قلبك مع هذا الموكب العظيم، أم أنك النقطة الوحيدة المضطربة في صفحة الوجود؟ إن الإنسان قد يسبح بلسانه، بينما يظل باطنه معلقاً بذاته؛ يقول: سبحان الله، ثم يظن أن رزقه بيد الناس، وأن أمنه في جدار، وأن قيمته فيما يملك، وأن مستقبله مرهون بقدرة بشرية صغيرة. وهذا التناقض هو الغفلة في أعمق صورها: أن تعترف لله بالكمال في لفظك، ثم تمنح الأشياء شيئاً من خصائص الربوبية في شعورك. أما التسبيح الحق فهو تحرير القلب من كل تصور ينقص مقام الله، أو يرفع المخلوق فوق قدره، أو يجعل للأسباب استقلالاً عن مسببها. حينئذ لا يعود قولك «سبحان الله» كلمة تمر على الشفتين، بل يصير انقلاباً داخلياً يعيد ترتيب عالمك: الله أكبر من خوفك، وأعز من خصمك، وأحكم من تدبيرك، وأرحم بك من ظنك، وما سوى الله أسبابٌ ضعيفة لا تقوم إلا بإقامته ولا تعمل إلا بإذنه.

الآية الثانية: حين تأتي الهزيمة من الباب الذي لم يُحسب له حساب

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكَافِّ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾

بعد أن ملأت الآية الأولى الأفق بتسييح السماوات والأرض، نزلت بنا الآية الثانية إلى مشهد تاريخي محدد، ولكنها لم تقل إن المؤمنين هم الذين أخرجوا، بل بدأت بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ﴾، لترد الحدث من أيدي البشر إلى يد التدبير الأعلى. نعم، هناك رجال ساروا، وحصار ضرب، وأسباب تحركت في ظاهر الأرض، لكن الفاعل الحقيقي الذي جمع الأسباب، وهياً النفوس، وأضعف العزائم، وفتح في جدار القوة شقوقها الخفية، هو الله. وهذه الرؤية لا تلغي الفعل البشري ولا تعفي الإنسان من السعي، بل تحرره من عبادة السعي؛ فيتحرك بما أمر الله، لكنه لا ينسب إلى نفسه ما لا يملك، ولا يفتن بالأداة حتى ينسى اليد التي أجرتها، ولا يظن أن التاريخ تصنعه الخطط وحدها، فكم من خطة محكمة سقطت بسبب خاطر مرّ بقلب، وكم من جيش مكتمل اضطرب من داخله، وكم من بناء بدا شديداً ثم انهار لأن الله نزع من أهله القدرة على الثبات.

لقد أخرج الله بني النضير من ديارهم في أول الحشر، وكان إخراجهم حدثاً بعيداً عن حسابات الفريقين: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾. حتى المؤمنون لم يكونوا يتوقعون أن تنتهي المواجهة إلى ذلك المصير؛ فقد كانت للقوم قوة ومنعة وحصون، وكانت للوقائع الظاهرة لغة تقول إن إخراجهم عسير. لكن الإيمان لا يعني أن يرى الإنسان مقدمات النصر كلها قبل أن يثق بوعده الله، بل يعني أن يعرف أن ما يراه ليس كل ما في المشهد، وأن وراء الأسباب الظاهرة تدبيراً لا تراه العيون، وقد يفتح الله للحق طريقاً لم ترسمه الخرائط ولم تحسبه العقول. ليس المطلوب أن يغمض المؤمن عينيه عن موازن الواقع، وإنما المطلوب ألا يجبس قدرة الله داخل هذه الموازن؛ فالواقع صفحة ظاهرة، لكن لله في أعماقه أقلاماً تكتب ما لا يقرؤه المحللون إلا بعد وقوعه.

وفي الجهة الأخرى كان وهمٌ مضاد: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾. لم يظنوا أن حصونهم قد تؤخر خصومهم لحسب، بل تضخم اعتمادهم عليها حتى صارت في شعورهم مانعة لهم من الله. وهنا تتحول الوسيلة إلى صنم داخلي؛ فكل سبب ينسب الإنسان عنده مسبب الأسباب يصبح حصناً من الوهم، سواء كان جداراً من حجارة، أم مالا مدخراً، أم منصباً، أم شهرة، أم جماعة، أم ذكاء، أم علم، أم علاقة بذي سلطان. ليست المشكلة في أن تمتلك الحصن، بل في أن يمتلك الحصن قلبك؛ ليست المشكلة في أن تنتفع بالأسباب، بل في أن تنسب إليها القدرة المستقلة، فتشعر بالأمان لمجرد وجودها، كأنها وقعت خارج سلطان الله. ومن دقائق التعبير أن الحصون هي التي صارت في حسابهم مانعة، فكأنهم سلّوا إليها أنفسهم،

ووضعوا مصيرهم في جارتها، ونقلوا ثقتهم من رب السماوات إلى جدار قد يتصدع من ضربة، أو يبقى قائماً بينما يسقط المدافعون عنه من داخل نفوسهم.

وعندئذ جاءت العبارة التي تهز كل غرور: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾. ليس المعنى انتقالاً ولا مجيئاً جسمانياً، تعالى الله عن مشابهة خلقه، وإنما أتاهم أمره وقضاؤه وعقابه من الجهة التي لم تدخل في حسابهم. لقد راقبوا الأبواب، لكن الهزيمة لم تدخل من باب؛ أحكموا الجدران، لكنها نبتت في الصدور؛ استعدوا للعدو خارجهم، ولم يستعدوا للرب حين يستيقظ داخلهم. وهكذا يأتي أمر الله أحياناً من ثغرة لا يراها المتكبر، لأن غروره نفسه يعميه عنها؛ فهو يحصي قوة خصمه ولا يحصي فساد قلبه، يقيس سمك الجدران ولا يقيس هشاشة اليقين، يراقب حركة الخارج ولا يدرك أن الهزيمة بدأت تتشكل في الداخل.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾؛ فقبل أن تسقط البيوت سقطت القلوب، وقبل أن تفتح الحصون فتحت في الداخل هوة ابتلعت الطمأنينة. واختيار لفظ ﴿قَذَفَ﴾ يصور الرعب كثيئاً نافذاً ألقى في أعماق النفس فجأةً، فاستولى عليها وبدل موازينها؛ إذ قد يملك المرء السلاح ولا يملك اليد التي ثبتت عليه، وقد تكون حوله الجموع لكنه يشعر في أعماقه بوحدة قاتلة، وقد يبقى الحصن قائماً في الخارج بعد أن انهار المعنى الذي كان يمنحه قوته. والقلوب هي ساحة المعارك الأولى والأخيرة؛ فإذا سكنها اليقين اتسعت بصاحبها الأرض وإن ضاقت، وإذا سكنها الرعب ضاقت به الحصون وإن اتسعت. لذلك كان بناء القلب جزءاً من بناء القوة، وكان الإيمان بالله أمناً داخلياً لا تصنعه الجدران، لأن المؤمن لا يستمد ثباته من غياب الخطر، بل من حضور الله في وعيه.

ثم تبلغ المفارقة ذروتها: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. ما أشد هذا المشهد! أيد بنت البيوت، ورفعت جدرانها، وزينت أبوابها، وجمعت داخلها ذاكرة السنين، تعود فتهدم ما صنعت. حين يفسد التصور، ويخون الإنسان الحق، ويقيم أمانه على الغدر والباطل، قد يصبح هو نفسه أداة في خراب عالمه. وليس كل خراب يأتي من عدو ظاهر؛ فن البيوت ما تهدمه الأنانية من الداخل، ومن المجتمعات ما تفككه الأحقاد التي ربتها طويلاً، ومن النفوس ما تحطم مواهبها بأيديها حين تستسلم للكبر أو اليأس أو الشهوة. وقد يُنفق الإنسان عمره في بناء صورة زائفة لنفسه، ثم يأتي موقف واحد فيكشف أنها لم تكن بيتاً بل قناعاً، ولم تكن حصناً بل حائطاً رقيقاً يخفي وراءه خوفاً قديماً.

ولهذا لم تحتم الآية بقولها: فتذكروا، بل قالت: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾. والاعتبار عبور من المشهد إلى القانون، ومن أخبار الآخرين إلى محاسبة النفس، ومن ظواهر الحادثة إلى حقيقتها الباقية. وصاحب البصر لا يكتفي بأن يرى البيوت المخربة، بل يرى الغرور الذي سبق خرابها؛ لا يتوقف عند الرحيل، بل يسأل عن الظن الذي ساق إليه؛ لا يشمت بمن سقط، بل يفتش في قلبه عن حصونه هو. فما الحصن الذي يظنه مانعاً له من الله؟ وأين وضع ثقته؟ وما الشيء الذي إن نزع منه شعر أن عالمه انتهى؟ إن الآية لا تسمح لك أن تقف خارجها

متفرجاً، بل تمد يدها إلى قلبك وتقول: لا تنظر إليهم فقط؛ انظر إلى نفسك من خلالهم، فكل قلب يبني يقينه على غير الله يحمل في داخله صورة صغيرة من ذلك الحصن الذي ينتظر لحظة انكشافه.

الآية الثالثة: حين تكون عقوبة الدنيا حجاباً عن عقوبة أشد

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَهمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾

لم يكن الجلاء حادثاً مرتجلة، بل كان أمراً كتبه الله عليهم، وحين يرد التعبير بالكناية لشعر بثقل القضاء واستقراره، كأن ما وقع في الأرض كان قد سطر في علم الله قبل أن تتحرك أول خطوة نحوه. غير أن الآية تكشف أن ما أصابهم، على شدته، لم يكن أقصى ما يستحقونه في الدنيا؛ فلو أن الله كتب عليهم الخروج لعذبهم فيها بعقوبة أخرى أشد. وهنا يتعلم القلب ألا يقيس حقيقة المصير بحجم الألم الظاهر، فقد تكون المحنة التي يراها الإنسان نهاية صورة من صور التخفيف، وقد يكون ما لم يقع أعظم مما وقع، وقد يمر بالمرء قضاء مؤلم يحجبه الله به عن قضاء أشد. نحن نرى الباب الذي أغلق، ولا نرى الهاوية التي كان انفتاحه سيقود إليها؛ نرى ما أخذ الله، ولا نرى ما أبقى؛ نعد الخسائر الظاهرة، ولا نستطيع إحصاء الشرور التي صرفها عنا في الغيب.

لكن الجلاء، مع ما فيه من مفارقة الديار والذكريات والممتلكات، لا يغلق ملف الإنسان، لأن الدنيا ليست المحكمة الأخيرة: ﴿وهم في الآخرة عذاب النار﴾. وهذه الجملة تنتزع النفس من خداع اللحظة؛ فقد يظن الإنسان أن النجاة من العقوبة العاجلة نجاة مطلقة، أو أن موته قبل ظهور نتائج جرمه يحو الجرم، غير أن الآخرة تعيد إلى الوجود ميزانه الكامل. هناك لا تحتفي الخيانة خلف براءة السياسة، ولا يتوارى الباطل وراء كثرة الأنصار، ولا يفلت الظالم لأن ضحيته لم تملك أن تحاكمه. إن الإيمان بالآخرة ليس فكرة تضاف إلى العقيدة من طرفها، بل هو القوة التي تمنع التاريخ من أن يتحول إلى عبث؛ إذ لولا الحساب النهائي لبقيت مظالم كثيرة بلا جواب، ودموع بلا إنصاف، وجرائم مات أصحابها في فراشهم كأنهم انتصروا. لكن النار تقول إن نهاية المشهد ليست حيث تسدل الدنيا ستارها، وإن من خرج من محكمة الأرض لن يخرج من ملك الله.

وفي النفس الإنسانية ميل إلى تأجيل النظر في العاقبة؛ فهي تفتن بالحاضر لأنه محسوس، وتضعف أمام اللذة القريبة، وتنسى الغد البعيد. ولذلك تجمع الآية بين الدنيا والآخرة لتصحيح ميزان الشعور: ما يقع هنا ليس كل شيء، وما ينتظر هناك ليس وهمًا، والمسافة بين الفعل وجزائه لا تعني أن الصلة بينهما قد انقطعت. قد تبذر الخطيئة اليوم بذرة صغيرة لا يراها أحد، لكنها تنو في أرض الروح، وقد يبدو الكذب طريقاً قصيراً للنجاة، ثم يتبين أنه أول الطريق إلى حصار طويل. والإنسان الحكيم لا يسأل فقط: ماذا سأربح الآن؟ بل يسأل: إلى أين يقودني هذا الربح؟ ولا يسأل: كيف أتخلص من ألم الموقف؟ بل يسأل: بأي قلب سألقى الله بعده؟

وهنا تفتح الآية باباً لحاسبة لطيفة ولكنها حاسمة: كم من إنسان عد تأخر العقوبة دليلاً على سلامة الطريق، فاغتر بإمهال الله؟ وكم من قلب ظن أن الستر رضا، وأن القدرة على تكرار

الذنب تعني نجاته من أثره؟ إن الله قد يمهل لأن رحمته تدعو العبد إلى الرجوع، وقد يؤخر العقوبة لتقوم الحجة، وقد يذيق الإنسان بعض نتائج فعله في الدنيا تنبيهاً لا استئصالاً؛ فلا ينبغي أن تتحول سعة الحلم الإلهي إلى وقودٍ لمزيد من الغفلة. العاقل يرى في كل مهلة باباً للتوبة، وفي كل إنذار رحمةً مستترة، وفي كل انكشاف دعوةً إلى إصلاح ما بقي قبل أن يأتي يوم لا يملك فيه أن يعيد بناء بيتٍ هدمه بيديه.

الآية الرابعة: الشقاق الذي يبدأ في القلب قبل أن يظهر في التاريخ

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

بعد عرض النتيجة تعود الآية إلى الجذر: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. لم يكن ما نزل بهم عشوائياً، ولم تكن قوتهم وحدها سبب هلاكهم، وإنما كانت المشكلة في الجهة التي اختاروا الوقوف فيها. والمشاقّة مأخوذة من الشَّقّ؛ أي صاروا في شقّ، وجعلوا أمر الله ورسوله في شقّ آخر، فكأن الوجود قد انقسم في وعيهم إلى جانبين، فاختاروا أن يقيموا على الضفة المقابلة للحق. وهذه هي حقيقة المعصية حين تستحكم وتتحول إلى مشروع: ليست مجرد زلة عابرة يندم عليها القلب، بل إقامة واعية في جهة تناقض أمر الله، واستنفار للقدرات والحيل من أجل مقاومة الهدى.

وما أضعف الإنسان حين يضع نفسه في شقّ مقابل لله! إنه لا يخرج من سلطان الله كي يحاربه من خارجه، بل يعصيه وهو قائم بقدرته، ويتنفس من هوائه، ويتحرّك بقوته التي أودعها فيه، ويستعمل النعمة في منازعة المنعم. فأى مأساة أشد من أن يتحول العقل الذي وهبه الله للإنسان إلى آلة لتبرير الباطل، وأن يصير اللسان الذي علّمه البيان أداةً لطمس الحق، وأن تصبح الحرية التي منحه إياها مجالاً للتمرد على مصدر وجوده؟ إن العاصي لا ينتقص من ملك الله شيئاً، لكنه يشق نفسه من الداخل؛ يقطعها عن مصدر طمأنينتها، ويضعها في مواجهة لا تستطيع أن تنتصر فيها، ثم يدفع عمره ثمناً لمحاولة مستحيلة.

واقتران الرسول بالله في مقام الطاعة والمشاقّة يبين أن دعوى الإيمان بالله لا تستقيم مع رد هدي رسوله؛ فالرسالة هي الطريق الذي اختاره الله لتعريف الإنسان بممراده، ومن أراد الله بعيداً عن الوحي لم يطلب الله كما عرّف نفسه، وإنما طلب صورةً صاغتها رغباته. وقد يميل الإنسان إلى إله لا يأمر ولا ينهى، ولا يصحح مساره، ولا يعترض شهوته؛ إله ساكن في زاوية وجدانية، يستدعيه عند الخوف ويعزله عند الاختيار. لكن الله ربّ يُعبد، وقد أرسل رسوله ليقيم في الحياة ميزان الحق، فمن فصل محبة الله عن اتباع رسوله جعل الدين عاطفةً بلا عهد، وكلماتٍ بلا طريق.

ثم تتحول الآية من الحديث عن قوم مضوا إلى قانون مستمر: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. لم تقل: ومن شاق، بل جاءت بصيغة تشمل كل من يدخل هذا الطريق في أي زمان ومكان. فالقوانين الإلهية لا تموت بموت أمثلتها الأولى، والتاريخ لا يكرر الأشخاص، لكنه يكرر المعاني: تتغير أسماء الحصون، وتبدل صور القوة، وتتوعد أسنة التبرير، ويبقى الشقاق شقاقاً، ويبقى الغرور غروراً، ويبقى الله شديد العقاب. وشدة العقاب ليست قسوةً منفصلة عن العدل، بل هي الوجه الذي يلقاه الإصرار حين يرفض أبواب الرحمة المفتوحة؛ فالذي أرسل الرسل، وأنزل الآيات، وأهل، وستر، وأنذر، ودعا إلى التوبة، لم يعاقب إلا بعد قيام

الحجة. وما أشد غفلة من يرى حلم الله فيظنه عجزاً، ويرى تأخير العقوبة فيحسب أن الطريق قد خلا له.

ومع ذلك فإن هذه الآية لا تدفع القلب إلى اليأس، بل إلى مراجعة موضعه: في أي شق أقف؟ هل أنا مع مراد الله حين يوافق هواي فقط، أم أبقى معه حين يكلفني الحق خسارة أو صبراً أو اعترافاً بالخطأ؟ قد تبدأ المشاقّة من أمر صغير يستثقله الإنسان، ثم يكثر حوله الجدل ليعفي نفسه من الامتثال، حتى يتحول الهوى من رغبة عابرة إلى مرجعية تحكم الوعي. والطريق إلى السلام يبدأ حين يعيد الإنسان نفسه إلى الشق الذي يليق بعبوديته؛ لا شق المتعالي على الأمر، بل شق المفتقر الذي يقول: قد لا أفهم كل الحكمة، وقد تتأخر عني بعض الثمار، لكنني أعلم أن الله العزيز لا يُغلب، وأن الله الحكيم لا يشرع عبثاً، وأن النجاة ليست في أن ينتصر رأيي، بل في أن يستقيم قلبي مع الحق.

وهكذا تنتهي الآيات الأربع الأولى وقد رسمت البنية العميقة للسورة: كَيْون يسبح لله، وقوم خرجوا عن إيقاع التسبيح، وحصون حاولت أن تمنحهم أمناً مستقلاً، ورعب دخل من الطريق الذي أغفلوه، وبيوت هدموها بأيديهم، ثم كلمة فاصلة تعيد كل النتائج إلى أصلها: لقد وضعوا أنفسهم في الشق المقابل. وما بين تسبيح الكون ومشاقّة الإنسان تشكل مأساة الغفلة كلّها، فالكون يمضي إلى الله طائعاً، والإنسان وحده يستطيع أن يتأخر، وأن يبني حول تأخره حصوناً من التأويل والغرور، حتى يأتيه الحق فيكتشف أن أسواره لم تكن تحميه من الخارج، بل كانت تحجبه عن رؤية ضعفه في الداخل.

الآية الخامسة: حين يكون القطع بإذن الله، وتبقى الجذور شاهدة على الحكمة

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾

بعد أن كشفت الآيات السابقة ما جرى في القلوب والحصون والبيوت، تنتقل السورة إلى تفصيل بدا في ظاهره متعلقاً بالأشجار، لكنه في حقيقته يفتح باباً واسعاً لفهم حركة المؤمن تحت سلطان الوحي. فقد قطع المسلمون في حصار بني النضير بعض النخيل، وتركوا بعضه قائماً على أصوله، فاتخذ الخوصوم من ذلك منفذاً للطعن والتشويش، كأنهم أرادوا أن يجربوا أصل خيانتهم وراء الحديث عن فروع النخل، وأن ينقلوا النظر من نقض العهد إلى آثار المواجهة التي جرها نقضهم عليهم. وهذا من طبائع النفس حين تهرب من محاكمة جوهرها؛ إنها تمسك بتفصيل جانبي، وتضخمه حتى يملأ المشهد، لئلا تضطر إلى الوقوف أمام السؤال الأكبر: من الذي بدأ بالخيانة؟ ومن الذي وضع نفسه في شق العداء؟ ومن الذي جعل أرضه وبيته وشجره ثمناً لغروره ونقضه؟

وتأتي الآية لتقرر أن ما قُطع من لينة، وهي نوع من النخل، وما ترك قائماً على أصوله، لم يكن فعلاً منفلاً من ميزان الشرع، ولا عبثاً أمله شهوة الإفساد، بل كان ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. إن الفرق بين الفعلين قد يكون واحداً في الصورة: شجرة تُقطع، لكن المسافة بينهما في ميزان المعنى بعيدة؛ فقد يقطع المفسد شجرة لأنه لا يرى في الوجود إلا مادة مباحة لنهمه، وقد يقطع المؤمن في موضع ضرورة أذن بها الله، وهو كاره للفساد، عالم أن الأصل في العمران الحفظ لا الإهلاك. الصورة وحدها لا تكفي للحكم على أخلاق الأفعال؛ فالنية، والغاية، والمرجعية، والضرورة، والحدود التي لا يتجاوزها الفاعل، كلها تدخل في حقيقة العمل. وقد يتشابه فعلاً أمام العين، بينما يكون أحدهما عدلاً والآخر عدواناً، لأن الأول وقف عند حد الإذن، والثاني خرج من عقال الهوى.

وفي الجمع بين القطع والترك معنى بالغ اللطف؛ إذ لم يجعل الله الفعل المشروع صورةً واحدة جامدة، بل وسع للمؤمنين في حدود الحكمة: ما قطعتموه فبإذن الله، وما أبقيتموه قائماً على جذوره فبإذن الله. فالطاعة لا تكون دائماً في الفعل، كما لا تكون دائماً في الترك؛ وإنما تكون في موافقة مراد الله. قد يكون الإقدام عبادةً في موطن، ويكون الإجماع عبادةً في موطن آخر، وقد يكون الكلام شجاعةً حين يراد للحق أن يُدفن بالصمت، ويكون الصمت حكمةً حين يتحول الكلام إلى وقود للفتنة، وقد يكون الإمساك بالشيء أمانةً، ويكون التخلي عنه في وقت آخر هو الأمانة نفسها. ليست القداسة في الحركة ولا في السكون بذاتهما، بل في أن يتحرك القلب والجوارح على هدىً من الله، فلا يجعل الإنسان مزاجه شريعةً، ولا يقدس اختياره لمجرد أنه اختياره.

وكم يحتاج القلب إلى هذا الميزان في لحظات الاضطراب؛ لأن الأزمات تخلط بين الغضب للحق والغضب للنفس، وبين الحزم والانتقام، وبين الضرورة والتوسع في الضرر. وقد يبدأ الإنسان فعلاً مشروعاً، ثم تسلل إليه شهوة التشفي، فيظل ظاهر العمل قريباً من الحق بينما يتعد باطنه عنه. ولهذا يحتاج المؤمن إلى مراقبة الإذن في أثناء الطريق، لا عند بدايته فقط؛ يسأل نفسه كلما تقدم خطوة: هل ما أفعله الآن ما زال داخل حدود الله، أم أن نفسي خطفَت الرأية ومضت بها إلى معركتها الخاصة؟ إن الانتساب إلى قضية عادلة لا يجعل كل وسيلة عادلة، والغضب من الظلم لا يمنح الإنسان حق التحول إلى صورة أخرى منه، والإذن المحدد لا يصير باباً مفتوحاً للرغبات التي لا تشبع. فلا يكفي أن يبدأ الطريق باسم الله إذا كان صاحبه سيغادر ميزان الله بعد أول منعطف.

ثم تقول الآية: ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾. كان قطع بعض النخيل جزءاً من إظهار عجزهم وانهميار سلطانهم؛ فالشجرة التي رأوها امتداداً للملكهم وأمنهم باتت أمام أعينهم عرضة للتغيير، وكأنهم يشاهدون سيطرتهم على المكان تنفكك غصناً غصناً. والخزى هنا لا يقع اعتباراً، بل يصيب ﴿الْفَاسِقِينَ﴾؛ أولئك الذين خرجوا عن عهد الله، فالفسق في أصل دلالة خروج، كما تخرج الثرة من قشرتها، وكأنهم لما خرجوا عن حدود الحق أخرجهم الله من ديارهم، فجاء الجزاء على هيئة تشبه الجريمة في معناها: خروج باطني من الطاعة أعقبه خروج ظاهر من المكان.

ومع ذلك تظل صورة النخيل القائم على أصوله حاضرة إلى جوار النخيل المقطوع، لتقول إن الإسلام لا يتلذذ بمشهد الخراب، وإن المقصود ليس إزالة الحياة، بل إزالة الباطل الذي اتخذ من بعض مظاهر العمران ستاراً له. فثمّة أشجار تُترك كي يستمر الظل والثر، وثمّة شجرة تُقطع لحكمة عارضة، وليس المؤمن ابن الهدم المطلق، بل ابن الميزان. وإذا اضطُر إلى إزالة شيء لم يجعل الإزالة هويته، وإذا قاتل لم يتحول القتال إلى روج تسكنه بعد زوال سببه، وإذا غلب خصمه لم ينس أن الله الذي أذن له اليوم قادر على أن يحاسبه غداً على تجاوز قدر شجرة. إن الإذن الإلهي ليس فقط مصدر مشروعية للفعل، بل هو سياج أخلاقي يحيط به، ويمنع القوة من أن تسكر بصاحبها.

وفي أعماق النفس ليناتٌ كثيرة: عاداتٌ ثمت حتى ضربت جذورها، وتعلقاتٌ استظلت بها الروح زمناً، وصور عن الذات بدت كأنها جزء من وجودها. وبعض السير إلى الله يحتاج إلى قطع شجرة داخلية حجت عن القلب نور السماء، ولو كانت مألوفاً جميلة في عينيه، وبعضه يحتاج إلى إبقاء أصل صالح ورعايته حتى يثمر. والحكمة هي أن تعرف ما الذي ينبغي أن تقطعه من حياتك، وما الذي ينبغي أن تتركه قائماً على أصوله. فليس التجرد هدماً لكل شيء، وليس الإصلاح قطيعة مع كل ماضٍ، بل قد يكون الماضي نفسه مشتملاً على جذور خيرٍ تحتاج إلى تهذيب لا اقتلاع. ومن لم يهده الله إلى هذا الفرق قد يقطع في حماسه ما كان ينبغي أن يتيمه، أو يبقِي بدافع ألفته ما كان ينبغي أن يتخلص منه.

الآية السادسة: نصرُ لم تصنعه سرعة الخيل، بل صنعه سلطان الله

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

تنتقل السورة من النخل الذي قطع أو ترك إلى الأموال التي عادت إلى المسلمين من غير قتال ممتد، فتستخدم لفظاً شديد الدلالة: ﴿أَفَاءَ اللَّهِ﴾. والفيء في أصل صورته رجوع الظل بعد انحساره، فكأن الأموال حين كانت في أيدي من يستخدمونها في الصد عن الحق كانت خارجة عن وجهتها العادلة، فلما ردها الله إلى رسوله عادت إلى الموضع الذي ينبغي أن تسير منه إلى مصالح الأمة. إن المال في الرؤية القرآنية لا يكتسب شرعيته الكاملة بمجرد القدرة على امتلاكه، بل بالطريق الذي جمع به، والوجه الذي يُنفق فيه، والأثر الذي يتركه في الناس. قد يحمل الإنسان صكوك الملكية كلها، لكن المال يكون في الحقيقة قد استعبده، وقد لا يمسك المؤمن منه إلا قليلاً، لكنه يضعه في موضعه فيكون سيده لا عبداً في خزائنه.

وتنسب الآية الفيء إلى الله منذ أول كلمة: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾، قبل أن تنفي عن المؤمنين أنهم أوجفوا عليه من خيل ولا ركاب؛ فلم تكن هناك مطاردة طويلة أُسرعت فيها الخيول والإبل، ولا معركة تقليدية أنفق فيها الجيش جهداً يجعل المقاتلين يستحقون الغنيمة بحسب أحكامها، بل سقطت المقاومة على نحو أظهر مباشرة التدبير الإلهي. وكأن الله أراد أن يربي الجماعة المؤمنة عند أول موارد القوة والمال على ألا تنسب الفضل إلى حركة الأقدام وحدها؛ فالخيل قد تجري، لكن جريانها لا يصنع النتيجة مستقلاً، والسيوف قد تلعب، لكن لمعانها لا يفتح قلباً أغلقه الخوف أو يغلق باباً فتحه الله، والقادة قد يخططون، لكن الخطوة تظل ورقاً ما لم يمنحها القدر لحظة النفاذ.

﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾؛ ما أسرع ما يربط الإنسان استحقاقه بما بذل، فإذا لم يبذل ظن أن العطاء لا يمكن أن يأتيه، وإذا بذل ظن أن العطاء صار ديناً واجباً على الحياة. أما القرآن فيريه على ميزان أدق: أنت مأمور بالسعي، لكنك لا تشتري النتائج بجهدك؛ فالنتيجة فضل من الله، وقد يعطيك من طريق لم تتعب فيه كما ظننت، ويحجب عنك رغم كثرة التعب ما يعلم أن وصوله إليك ليس خيراً. ليست العلاقة بين السعي والعطاء علاقة آلية صماء، بل علاقة تدخل فيها حكمة الله وعلمه بالقلوب والمآلات. ولذلك لا يكون من قل نصيبه أقل قيمة بالضرورة، ولا يكون من اتسعت دنياه أكثر استحقاقاً؛ فقد تجري خيول ولا يأتي الفتح، وقد تسكن الخيول ويأتي الفيء إلى الأيدي بقدر الله.

غير أن هذا لا يفتح باب التواكل؛ لأن السورة نفسها تتحدث عن جماعة نهضت بدينها، وخرجت في مواجهة الخيانة، وأطاعت قائدها، وتحملت آثار الموقف. لكنها تصحح موضع الجهد في العقيدة: السعي عبودية، وليس ربوبية؛ تعمل لأن الله أمرك أن تعمل، لا لأنك تظن

أنك تمسك بمفاتيح القدر. وإذا نجحت لم تقل إن ذكاءك وحده أنقذك، وإذا تعثرت لم تظن أن الكون قد خرج من الحكمة، بل تبقى بين بذل صادق وتضيض عميق، كزارع يشق الأرض ويضع البذرة ويسقيها، ثم يرفع قلبه إلى السماء لأنه يعلم أن سر الإنبات ليس في أصابعه.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ فالرسل لا يصنعون سلطانهم من ذواتهم، وإنما يمنحهم الله من التأيد ما تقوم به حجتهم، ويحمي بهم ميزان الحق من أن تبتلعه قوى الباطل. وليس هذا التسلط تفضيلاً عرقياً ولا انتقاماً شخصياً، بل جزء من إقامة العدل في الأرض؛ فالرسول يحمل رسالة الله، ومن يعاديه بسبب الرسالة إنما يضع نفسه في مواجهة الحق الذي أرسل به. والرسل أنفسهم أشد الناس وعياً بأن النصر ليس ملكاً شخصياً؛ فلا يستعملونه لبناء مجد الذات، ولا يحولون رسالة السماء إلى عرش أرضي، بل يرون في كل فتح تكليفاً جديداً، وفي كل مال أمانة تحتاج إلى توزيع يرضي الله.

وتختتم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، لنتنزع من القلب آخر بقايا استبعاد قدرة الله. إن الذي أخرج قوماً ما ظن أن يخرجوا، ورد أموالاً لم تركض إليها الخيل، وقذف الرعب في قلوبٍ احتمت بالحصون، ليس عاجزاً عن تغيير أي واقع مهما استحکم. لكن قدرته لا تعني أن تستعجل أنت صورتها التي تشتهيها؛ فقدترته مقرونة بالحكمة، وقد يقع التغيير أولاً في النفوس قبل الأنظمة، وفي الموازين الخفية قبل الخرائط الظاهرة. وقدرة الله ليست وعداً للكسالى بأن يجلسوا ثم يطالبوا السماء أن تنجز أحلامهم، بل هي طمأنينة للعاملين كي لا تحطمهم ضخامة العوائق؛ فما داموا يسرون في طريق الحق، فإنهم لا يقيسون إمكان النصر بحجمهم وحدهم، لأن الله على كل شيء قدير.

وفي الحياة الشخصية يأتيك من الأرزاق ما لم تركض إليه خيلك، وتُفتح لك أبوابٌ لم تقف طويلاً عندها، ويصرف عنك شر لم تعرف أنه كان يقترب، لتتعلم ألا تؤله قدرتك المحدودة. وقد تبذل في أمرٍ أعواماً فلا يتهيأ، ثم يفتح الله لك في لحظة باباً لم يكن في حسابك، لا ليعلمك ترك العمل، بل ليظهر عملك من الغرور. إنه يريد منك يداً تعمل وقلباً يتوكل، قدماً تمشي وروحاً تعلم أن الطريق بيده، عقلاً يخطط ووجداناً لا يسجد للخطئة. حينئذ تستقبل النجاح بشكرٍ لا بخيلاء، وتستقبل التأخر بصبر لا بانهيار، لأنك تعرف أن الفاعل وراء الأسباب لم تفلت منه حياتك لحظة واحدة.

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

هنا تدخل السورة إلى قلب البناء الاجتماعي، فتقرر أن الأموال التي أفاءها الله على رسوله ليست غنيمةً سائبةً يتخاطفها الأقوي، ولا مكافأةً خاصةً تدوب في خزائن أصحاب النفوذ، بل أمانة لها جهات معلومة ووظيفة أخلاقية. تبدأ القسمة بقوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾، والله غني عن العالمين، ليُفهم الإنسان أن المال قد خرج من دائرة الشهوة الخاصة ودخل في دائرة الحق الإلهي؛ فلم يعد لأحد أن يتصرف فيه كما يشاء، بل كما يشاء الله. وإضافة المال إلى الله تطهره من أهواء المالكين، وترد الإنسان إلى حقيقة الاستخلاف: ليست يدك أصل الملك، وإنما هي موضع امتحان؛ وما بين دخول المال فيها وخروجه تُكتب قصة قلبك: أنتشكر أم تجحد، تؤثر أم تستأثر، تنفق أم تكتز، ترى فيه وسيلةً للعرمان أم مرآةً لتضخم فيها صورتك؟

ثم يذكر الرسول وذوي القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فتتحول الثروة من كتلة جامدة إلى جسر تصل بين أطراف المجتمع. اليتيم الذي فقد السند لا ينبغي أن يفقد معه حقه في العيش الكريم، والمساكين الذي أثقله العجز ليس فائضاً بشرياً يُلقى في هامش المدن، وابن السبيل الذي انقطعت به الأسباب لا يجوز أن يُترك لأن سجلات الثروة لا تعرف اسمه. إن المجتمع القرآني لا يقياس بما يعلنه من شعارات عن الرحمة، بل بمقدار ما يصل من خيره إلى من لا يملكون قوةً تفرض حضورهم. فالغني يستطيع أن يرفع صوته، وصاحب النفوذ يجد من يفتح له الأبواب، أما اليتيم والمساكين والغريب فإن حقهم يحتاج إلى وحي يحرسه، وإلى ضميرٍ يعلم أن الضعيف قد يغيب عن مجالس القرار، لكنه لا يغيب عن علم الله.

ثم تأتي القاعدة التي تختصر فلسفةً كاملةً في عدالة التوزيع: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾. أي كيلا يظل المال متداولاً في دائرة ضيقة، ينتقل من غني إلى غني، ويزيد القوة قوةً والحرمان حرماناً، حتى ينقسم المجتمع إلى قبة تملك كل شيء وقاعدة تطلب منها التضحيات ولا يصل إليها شيء. إن القرآن لا يحارب الغنى لذاته، ولا يجعل الفقر فضيلةً مقصودة، لكنه يحارب أن تتحول الثروة إلى دورة مغلقة لا تنفذ منها قطرة إلى العطاش؛ لأن المال إذا احتبس في الأعلى لم يفسد بطون الجائعين وحدها، بل أفسد قلوب المترفين أيضاً، وحول المجتمع من جسدٍ تبادل أعضاؤه الحياة إلى جزرٍ متجاورة يفصل بينها الحسد والخوف والاحتقار.

فالمتداول بين الأغنياء لا يبقى مسألةً حسابية، بل يصنع ثقافةً كاملة: يجعل قيمة الإنسان بما يملك، ويمنح القادر على الشراء حق تعريف الجمال والنجاح والكرامة، ويدفع الفقير إلى أن

يرى نفسه أقل إنسانيةً لأنه أقل رصيِّداً. وعندها لا يعود المال في اليد، بل يصعد إلى القلب والعقل واللغة، فيعيد تسمية الأشياء: يصبح الطمع ذكاءً، والاحتكار براعة، والبذخ وجاهة، والرحمة ضعفاً. ومن هنا كان توزيع الفيء تربيةً روحية مثلاً هو تنظيم اقتصادي؛ لأنه يمنع المال من أن يتحول إلى إله خفي، ويعيده إلى وظيفته الأصلية: أن يخدم الحياة ولا يستعبد، وأن يعين الإنسان على أداء رسالته لا أن يصير هو الرسالة.

ولأن قسمة الأموال تُثير شهوات النفوس، وتوقظ فيها الاعتراض والمنافسة، جاءت القاعدة الجامعة: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾. نزلت الآية في سياق الفيء، لكن صياغتها تتجاوز المناسبة إلى أصل الاتباع كله؛ فما أعطاه الرسول من حكم وهدي نخذه القلب أخذ الموقن، وما نهى عنه فكف يدك وشهوتك وفكرك عند حد النهي. والفاء في ﴿فَخُذُوهُ﴾ و﴿فَانتَهُوا﴾ تحمل معنى المبادرة؛ فلا يكون المؤمن واقفاً أمام الأمر يساومه، يبحث عن مقدار ما يستطيع تعطيله مع بقاء اسمه في دائرة الطاعة، وإنما يتلقاه بثقة من علم أن الرسول لا يقوده إلا إلى الله.

وليس الأخذ الحقيقي أن تحفظ الحديث ثم تدفع هديه عن حياتك، ولا أن تعظم شخص الرسول في اللسان ثم تستقل سنته حين تعارض عادةً أو مصلحةً أو هوى. المحبة التي لا تثمر اتباعاً قد تتحول إلى عاطفة تعظم الصورة وتغيب عنها الرسالة. فالرسول ﷺ لم يأت ليكون ذكرى جميلة معلقة في التاريخ، بل ليكون هديه ميزاناً حياً، يصحح علاقة الإنسان بربه، وبماله، وبأسرته، وبخصمه، وبضعفاء مجتمعه، وبنفسه حين تطغى. وكلها ضايق القلب بحكم صحيح من هديه، فالمشكلة ليست في نور الهدى، بل في نافذة الداخل التي تراكم عليها غبار الهوى.

ثم تقول الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، كأنها تشير إلى أن الرقابة الخارجية مهما اشتدت لا تكفي لحراسة المال والحقوق، لأن الإنسان يستطيع أن يتحايل على النصوص، ويزن استثنائه بلغة المصلحة، ويخفي جشعه خلف أبواب من المصطلحات؛ لكن التقوى تضع في القلب عيناً لا تنام، وتجعله يستحضر نظر الله حيث تغيب أعين الناس. إن أعظم أنظمة العدالة قد تتحول في أيدي نفوس فاسدة إلى آلات جديدة للظلم، أما حين تسكن التقوى فإن الإنسان قد يملك فرصة الاستيلاء ثم يتركها، لا لعجزه، بل لأنه رأى الله أقرب إليه من المال.

﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، فالمال ليس مجالاً هامشياً لاختبار الدين، بل قد يكون الموضع الذي تنكشف فيه حقيقة الإيمان. كثيرون يثبتون عند الكلمات ويضطربون عند القسمة، يرفعون راية المبادئ حتى تقترب من مصالحهم، فإذا صار للحق ثمنٌ مالي بحثوا عن تفسير يخففه. ولهذا يجيء الوعيد بعد الأمر بالأخذ والانتها والتقوى؛ لأن ظلم الضعفاء، واحتباس الثروة، ومخالفة هدي الرسول في الحقوق، ليست أخطاءً إدارية باردة، بل اعتداءات أخلاقية يعاقب الله عليها. وحين يجوع إنسان بسبب نظامٍ يستطیع إطعامه، أو يُحرَم يتيم لأن قوياً احتال على نصيبه، فإن وراء الأرقام قلوباً موجوعةً يراها الله، وحقوقاً لا تسقط لأنها لم تجد محامياً في الأرض.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

بعد أن ذكرت الآية السابقة الجهات التي يصرف إليها الفتي، تقترب هذه الآية من فئة عاشت الفقر لا بوصفه اختياراً رومانسياً، بل بوصفه الثمن الأرضي لإيمانها: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾. إنهم فقراء، لكن فقرهم لم يكن فراغاً في القيمة؛ فقد تكون اليد خالية والقلب ممتلئاً، وقد يخرج الإنسان من بيته وليس معه إلا ثيابه، لكنه يحمل في داخله معنى لو وُزن بمدن الأرض لرحل بها. ليس الغنى دائماً فيما يبقى معك، بل قد يكون في الشيء الذي استطعت أن تتركه حين دعاك الحق إلى تركه. وكم من ممتلك لبيوت كثيرة لا يملك نفسه أمام واحد منها، وكم من مهاجر ترك البيت والمال فأثبت أن الأشياء كانت في يده ولم تكن سلاسل في روحه.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾؛ والديار ليست جدراناً فقط، بل طبقات من الذاكرة: عتبة عرفتها القدم، ونافذة دخل منها الصباح أعواماً، وطريق يحمل أسماء الوجوه، وأماكن تتوزع فيها ضحكات الطفولة وأحزان العمر. أن يُخرج الإنسان من داره يعني أن يُنتزع من امتداد مألوف لذاته، وأن يبدأ في أرض جديدة بقلب لا تزال روائحه القديمة تسكنه. ثم تضيف الآية: ﴿وَأَمْوَالِهِمْ﴾؛ فما خرجوا فقراء ابتداءً، بل جعلوا فقراء حين فصلهم الظلم عن ثمرة سعيهم. وهذا فرق أخلاقي مهم؛ لأن الفقر أحياناً ليس نقصاً في كفاءة الفقير، بل أثراً من آثار طغيان صادر حقه، أو نظام أغلق أمامه الطرق، أو تضحية اختارها حين أبى أن يشتري السلامة ببيع ضميره.

لكن القرآن لا يحبس المهاجرين في صورة الضحية، ولا يجعل ما فعل بهم هو التعريف الأخير لهم؛ فما أعظم الفرق بين إنسان تحدده خسارته، وإنسان تحدده غايته. إنهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾؛ خرجوا من شيء، لكنهم خرجوا إلى شيء أعظم، وفقدوا مالاً، لكن أبصار قلوبهم كانت متجهة إلى فضل الله ورضاه. والابتغاء طلب حي يتحرك فيه الإرادة، فهم لم يكونوا قطعاً من الحزن جرفها الظلم، بل أصحاب مقصد يعرفون لماذا يدفعون الثمن. من عرف «لماذا» احتمل كثيراً من مرارة «كيف»، ومن رأى الرضوان في نهاية الطريق لم تعد الأشواق عنده دليلاً على ضياع الطريق، بل ربما كانت شاهداً على صدق المسير.

وجمع الفضل والرضوان يفتح للقلب أفقاً واسعاً؛ فهم يرجون فضل الله، لأن العبد لا يدخل الجنة بعمله المجرد، ولا يستغني لحظة عن رحمة ربه، ويرجون رضوانه، لأن أعظم العطايا ليست شيئاً يُمنح لك بعيداً عن الله، بل أن يرضى الله عنك. قد يعطيك الناس المال ولا يمنحونك الحب، وقد يمنحك العالم التصفيق ويبقى قلبك مهجوراً، أما إذا رضي الله عنك فقد وصلت إلى موطن الأمن الذي لا ينقلب خوفاً. إن الرضوان ليس جائزة خارجية فحسب، بل

هو أن يعيش القلب في انسجام مع غايته، فلا يعود ممزقاً بين ما يعرف أنه الحق وما يصير على فعله، ولا يظل هارباً من نفسه، لأن وجهته صارت واحدة.

﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ والله غني عن نصره خلقه، لا تضره معصيتهم ولا تزيد في ملكه طاعتهم، وإنما ينصرون دينه ورسالته وعباده، وقيمون الحق الذي أمرهم أن يقيموه. وفي التعبير تكريم يفوق الوصف؛ فالفقير الذي أُخرج من داره، وظنه الطغاة ضعيفاً لا يملك شيئاً، ينسب الله إليه نصره دينه. لقد تزعت منه أسباب القوة المادية، لكنه بقي قادراً على أن يكون في صف الله، وهذه أعلى قوة يستطيع الإنسان أن يبلغها. فليس السؤال الأهم: ماذا تملك؟ بل: في خدمة أي معنى تضع ما تملك؟ قد ينصر الإنسان الحق بكلمة، أو بثبات، أو بعلم، أو بمال قليل، أو برفضه أن يتحول خوفه إلى خيانة، وقد يملك آخر ثروة وسلطاناً ثم لا يكون له في ميزان الحق وزن، لأنه سخر كل ما عنده لحراسة ذاته.

وجاء الفعل المضارع ﴿يَبْتَغُونَ﴾ و﴿يَنْصُرُونَ﴾ ليجعل سيرهم متجدداً؛ فهم لم يهاجروا مرة ثم اتخذوا هجرتهم وساماً يفهم من مواصلة الصدق، بل ظلوا يطلبون وينصرون. وهذا درس لكل صاحب سابقة في الخير: إن الأمس الصالح لا يغني عن صدق اليوم. قد يضحى الإنسان مرة، ثم يجعل تضحيته القديمة رأس مال يطالب به الناس أن يسكتوا عن أخطائه الجديدة، وقد يخدم قضية في بدايته ثم يتحول مع الزمن إلى عبء عليها؛ لكن القرآن لا يمنح الألقاب الخالدة لجرد لحظة عابرة، بل ينظر إلى الاتجاه المستمر الذي يسير فيه القلب.

ثم يأتي الختم الذي يرفع هؤلاء من مقام الوصف إلى مقام الشهادة: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾. لم يقل: أولئك صادقون فحسب، بل جاء بضمير الفصل ليحصر فيهم كمال الصدق في هذا المقام؛ لأنهم لم يثبتوا إيمانهم بالكلام، بل دفعوا ثمنه من الديار والأموال، ثم لم يتحول حرمانهم إلى مرارة تعطلهم عن النصر. الصدق هو أن تتطابق الكلمة مع الاستعداد لدفع ثمنها، وأن يبقى المعنى قائماً حين تسقط الزينة المحيطة به. ما أسهل أن يقول المرء: الله غايتي، حين تكون كل الأشياء معه، وما أصعب أن يظل يقولها بقلب مطمئن حين تززع منه الأشياء واحداً بعد آخر. هناك ينكشف أكان الله غايته حقاً، أم كان اسم الله ستاراً لغرض آخر.

ولذلك ليست الآية مدحاً تاريخياً للمهاجرين وحدهم، بل مرآة لكل قلب يدعي الصدق. فما الشيء الذي إذا تعارض مع الحق قدمته على الحق؟ وأي خسارة تستطيع احتمالها من أجل ألا تخون ضميرك؟ وهل تطلب من الله فضله ورضوانه، أم تطلب من الدين أن يمنحك مكاناً بين الناس؟ إن الصادق قد يحزن على ما فقد، فالصدق لا يلغي الطبيعة البشرية، لكنه لا يسمح للحزن أن يرده عن الطريق. قد تشتاق عينه إلى الدار، ويحن قلبه إلى الأيام، لكنه يعلم أن الوطن الأعمق ليس جداراً، بل موضع رضوان الله؛ وأن الإنسان قد يقيم في بيته ويكون غريباً عن نفسه، وقد يخرج من بيته فيجد في طريق الله منزلته الحقيقية.

وهكذا تعيد السورة ترتيب مفهوم الغنى والفقير: أولئك فقراء في الحساب الأرضي، لكنهم أغنياء بالمقصد، أقوياء بالانحياز، خالدون بالصدق. أخرجوا من ديارهم، غير أن الطغاة لم يستطيعوا إخراج الإيمان من قلوبهم؛ وأخذت أموالهم، لكن أحداً لم يستطع أن يأخذ منهم قدرتهم على طلب الرضوان. ومن بقي له الله بعد أن يفقد الأشياء لم يفقد الحقيقة كلها، ومن فقد الله وهو محاط بالأشياء لم يبق له في الحقيقة شيء.

الآية التاسعة: حين يفسح القلب لغيره مكاناً قبل أن يفسح له البيت

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّقِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مَدْرَأٌ﴾
﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّقِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مَدْرَأٌ﴾

بعد أن رسمت الآية السابقة صورة المهاجرين الذين تركوا الديار والأموال ابتغاء فضل الله ورضوانه، تلتفت السورة إلى الأنصار الذين لم يهاجروا من مدينتهم، ولكنهم هاجروا بقلوبهم من ضيق الأنانية إلى سعة الأخوة، ومن امتلاك المكان لأنفسهم إلى جعله مأوىً لإخوانهم. وإذا كانت بطولة المهاجر أن يترك ما يحب لله، فإن بطولة الأنصاري أن يفتح ما يحب لمن جاءه في سبيل الله؛ وإذا كان الأول قد امتحن بالفقد، فإن الثاني قد امتحن بالمشاركة، وكلا الامتحانين يكشفان حقيقة القلب: ذاك يُسأل هل يستطيع أن يغادر ما ألف، وهذا يُسأل هل يستطيع أن يقاسم غيره ما بقي في يده.

وتبدأ الآية بوصف بالغ الجمال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. والتبوء اتخاذ المكان منزلاً مستقراً، لكن التعبير لا يقول إنهم تبوءوا الدار بحسب، بل تبوءوا ﴿الْإِيمَانَ﴾ أيضاً، فكان الإيمان صار وطناً يسكن، وبيتاً تطمئن النفس في غرفه، وأرضاً تضرب فيها الروح جذورها. وما أبدع أن يكون للإنسان داران: دار من طين وحجارة تأوي إليها جوارحه، ودار من يقين ومحبة ورضا يأوي إليها قلبه. وقد يملك المرء منزلاً واسعاً لكنه يظل مشرداً في داخله، تتقاذفه المخاوف والأطماع، لا يجد موضعاً يسكن إليه؛ بينما يسكن المؤمن كوخاً ضيقاً، وفي صدره من رحابة الإيمان ما يجعل العالم أوسع من أن يحاصره.

إنهم لم يمتروا بالإيمان مروراً عابراً، ولم يقفوا عند بابه وقفة زائر، بل تبوءوه، أي جعلوه مقراً دائماً، ونظموا الحياة في المدينة على مقتضاه. فالإيمان الذي لا يتحول إلى طريقة استقبال للغريب، وإلى عدل في توزيع المال، وإلى محبة تحمي الضعيف، يبقى دعوى لم تسكن الأرض بعد. وقد يستطيع الإنسان أن يتحدث طويلاً عن العقيدة، لكنه إذا ضاق بمن جاء يشاركه نعمة من نعم الله انكشف مقدار ما نزل من عقيدته إلى قلبه؛ لأن الإيمان ليس فقط ما تقوله عن الله في مجالس الذكر، بل ما تفعله بحقوق عباده حين تراحم رغباتك.

ثم تكشف الآية أول أسرار ذلك المجتمع: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾. لم يقل القرآن: يقبلونهم، أو يؤوونهم، أو يسمعون لهم بالإقامة؛ فهذه كلها درجات يمكن أن يؤديها الإنسان بجوارح باردة وقلبٍ ممتعض، وإنما قال: ﴿يُحِبُّونَ﴾. لقد سبق القلب اليد، فصار البذل نتيجة طبيعية للمحبة، لا ضريبة ثقيلة يفرضها التكليف على نفس كارهة. والمحبة هنا ليست انفعالاً رقيقاً معزولاً عن الواقع، بل قوة اجتماعية تعيد ترتيب الملكيات والعلاقات؛ أحبوهم فوسّعوا لهم

البيوت، وقاسموهم الأموال، وأشعروهم أن الهجرة لم تنقلهم من وطن إلى منفى، بل من أهل إلى أهل.

وما أعمق قوله: ﴿مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾؛ فالمهاجرون هاجروا في الأصل إلى الله ورسوله، لكنهم من جهة المكان وفدوا على الأنصار، فصار الأنصار وجه المدينة التي استقبلتهم. وهكذا يكون المؤمن أحياناً صورةً من صور لطف الله بعباده؛ يأتيك إنسان مكسور، فتكون كلمتك له وطناً، ويمر بك غريب، فتكون بشاشتك أول نافذة يرى منها رحمة المكان، ويلجأ إليك محتاج، فتكون يدك طريقاً يسوق الله إليه رزقه. ولا يعني هذا أنك مصدر الرحمة أو الرزق، بل يعني أن الله شرفك بأن يجري بعض لطفه على يدك، فيأكد أن تحول الوساطة إلى منة، أو تجعل العطاء وسيلةً لإذلال من ساقه الله إليك.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾؛ وهنا يبلغ القرآن منطقة لا تبلغها القوانين البشرية. يستطيع القانون أن ينظم القسمة الظاهرة، لكنه لا يستطيع أن يقتلع الاعتراض الخفي من الصدر، أو يمنع ومضة الحسد حين يرى الإنسان نعمةً وصلت إلى غيره. أما التربية القرآنية فتجته إلى ذلك المكان المستور؛ إلى الصدر الذي قد تتبسم شفتاه ويبقى فيه ضيق، وقد تمد يده العطاء ثم يظل باطنه يعد ما خرج منها ويستقله. كان الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجةً ولا حزازةً ولا حسداً بسبب ما أعطي المهاجرون من الفيء، لأنهم لم يجعلوا مقدار نصيبهم من المال مقياساً لمقدار منزلتهم عند الله.

وهذا من أشق ألوان صفاء النفس: أن ترى الخير يصل إلى غيرك فلا تشعر أن العالم قد انتقص منك شيئاً، وأن يذكر سواك بالفضل فلا تفسر ذلك نسياناً لك، وأن يفتح الله لعبدٍ باباً أغلق دونك فلا يتحول قلبك إلى محكمةٍ تعترض على القسمة. الحسد في جوهره نزاعٌ خفي مع حكمة الله؛ لأن الحاسد لا يتألم من النعمة لذاتها، بل من كونها ذهبت إلى غيره، وكأنه يقول في أعماقه: كان الأولى أن تكون لي. أما القلب السليم فيعلم أن خزائن الله لا تنفذ، وأن ما أعطيه غيره لم يُنتزع من رزقه، وأن منزلة الإنسان لا تبني على إطفاء مصابيح الآخرين، بل على إشعال نوره هو بما آتاه الله.

ثم ترتفع الآية درجةً أخرى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. فليس إيثارهم صادراً عن فائضٍ لا يحتاجون إليه، ولا هو تصريح للزائد بعد امتلاء البيوت، بل قد يقدمون غيرهم في وقت الحاجة والخصاصة. والخصاصة كأنها فجوة في الحال، موضع نقصٍ يطلب ما يسده، ومع ذلك يتجاوزون نداء حاجتهم ليسمعوا حاجة أخيه. إن العطاء من الفائض كريم، لكنه لا يكشف دائماً مدى تحرر القلب من سلطان الشيء؛ أما أن تعطي مما تحتاج إليه، فعناه أنك قد جعلت رابطة الإيمان أقوى من صرخة التملك في نفسك.

غير أن الإيثار لا يعني إضاعة الواجبات أو تعريض من تلزمك نفقتهم للضرر، ولا يعني أن يصبح الإنسان فريسة لمن يستغل طيبته؛ فالقرآن الذي مدح الإيثار هو الذي أقام الموازين

وحفظ الحقوق. إنما المقصود تلك المنزلة العالية التي يخرج فيها المرء من مركبة الذات، فلا تكون حاجته هي الحقيقة الوحيدة التي يراها. كثير من الناس لا يظلمون الآخرين لأنهم يكرهونهم، بل لأنهم لا يرونهم أصلاً؛ تمتلئ مرآة وعيهم بصورتهم، فلا يبقى فيها موضع لألم أحد. أما المؤثر فيكسر المرآة التي لا تعكس إلا وجهه، ويفتح في قلبه نافذة يرى منها جوع أخيه وتعبه وخوفه كأنه شيء يمسّه هو.

ولذلك لم تختتم الآية بمدح العطاء نفسه، بل كشفت العدو الأعظم الذي انتصروا عليه: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. لم تقل: ومن يترك الشح فحسب، بل ﴿يُوقِ﴾، وكأن الشح آفة تحتاج إلى وقاية من الله، ونار كامنة في النفس لا ينجو منها الإنسان بمجرد إعجابه بأخلاقه. والشح أعمق من البخل؛ فالبخل إمساكٌ لما في اليد، أما الشح فهو جوع النفس إلى الاستئثار، وقلقها من أن ينال الآخرون خيراً، وتشبُّهاً بما تملك حتى لو لم تحتج إليه. قد ينفق الإنسان كثيراً ليشتر بالكرم، ويبقى في باطنه شحيحاً لأنه لم يخرج من عبادة ذاته، وإنما استعمل المال لتوسيع صورتها.

وأضيف الشح إلى النفس: ﴿شُحَّ نَفْسِهِ﴾؛ لأن المعركة ليست مع المال خارجك، بل مع القوة التي تريد احتجازه داخلك. قد يقل المال ولا يقل الشح، وقد تكثر الثروة ويزكو صاحبها منها، فالمسألة ليست مقدار الرصيد، بل مقام الشيء في القلب. الشحيح يخاف دائماً أن ينقص، ولو امتلأت خزائنه؛ والمؤمن الواثق بالله يشعر بالغي ولو كان قليل ذات اليد، لأنه لا يرى رزقه محبوساً فيما عنده. ولذلك كان الفلاح لمن وُقِيَ شح نفسه؛ إذ ما قيمة أن يريح الإنسان الأشياء كلها ويخسر حريته منها؟ وما قيمة بيت ممتلئ بالخيرات يسكنه قلبٌ فقير لا يجزؤ على العطاء؟

والفلاح في القرآن ليس نجاحاً جزئياً عابراً، بل بلوغ المقصود والنجاة من المهووب؛ فجعل الله التحرر من الشح طريقاً إلى الفلاح، لأن النفس إذا تحررت منه صارت قادرة على المحبة، وعلى العدل، وعلى التضحية، وعلى رؤية الآخرين. أما إذا ملكها الشح أفسد عبادتها وعلاقاتها ومواقفها؛ فقد تشح بالمال، وتشح بالعلم، وتشح بالثناء، وتشح بالاعتذار، وتشح بالوقت، بل ربما تشح بابتسامة يخشى صاحبها أن تمنح غيره شعوراً بالقيمة. وكم من إنسان لا يضره أن يعطي، لكنه يخل لأن عطاءه يعني في داخله اعترافاً بأن لغيره حقاً في هذا العالم.

هذه الآية ليست صورةً مثالية معلقة فوق التاريخ، بل دليل على أن الوحي يستطيع أن يصنع من جماعات متفرقة أسرةً أخلاقيةً جديدة. إن الأوس والخزرج اللذين أنهكتهما حروب الماضي، والمهاجرين الذين جاءوا من قبائل وبيئات مختلفة، لم يجمعهم الدم ولا السوق ولا الأرض وحدها، بل جمعهم الإيمان حتى صار الحب أقوى من حدود المنشأ. وهذه هي معجزة بناء الأمة: لا أن يعيش المختلفون في مكان واحد فحسب، بل أن يجد كل واحد في قلب الآخر موطناً. فالمجتمع لا ينشأ من تلاصق الجدران، وإنما من تواصل القلوب؛ وقد تمتلئ

المدينة بالسكان وهي خالية من السكن، إذا بات كل إنسان فيها محاصراً داخل مصلحته، يخاف من جاره، ويقيس العلاقات بما ينتفع به.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

بعد المهاجرين والأنصار يفتح القرآن باب الزمن، فلا تبقى فضائل السورة حبيسة الجيل الأول، بل تمتد لتضم كل من يأتي بعدهم حاملاً للإيمان والدعاء. ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ إنهم لم يشهدوا لحظة الهجرة، ولم يفتحوا بيوتهم للمهاجرين، ولم يقفوا في تلك المواقف بأجسادهم، لكنهم يستطيعون أن يتصلوا بذلك الموكب بقلوبهم، وأن يثبتوا صدق انتمائهم إليه بطريقة تعاملهم مع السابقين ومع المؤمنين من حولهم. فالأمة في الرؤية القرآنية ليست جيلًا منعزلاً، ولا جماعة تبدأ من نفسها كأن التاريخ قبلها فراغ؛ إنها نهر تتصل مياهه، يحمل المتأخر فيه وفاءً للمتقدم، ويترك للآتي بعده ما يستحق أن يذكر بخير.

وأول ما ينطق به هؤلاء: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾. يبدأون بأنفسهم، لكنهم لا يبدأون بتزكيتها، بل يطلب المغفرة؛ فهم يدخلون إلى التاريخ من باب التواضع، لا من منصة القاضي الذي يظن أن الله جمع له وحده العلم والصفاء، ثم وضع الأجيال السابقة كلها في قفص الاتهام. من عرف عيوب نفسه رقق حكمه على غيره، ومن استشعر حاجته إلى المغفرة لم يتلذذ بتتبع عثرات الناس. إنهم لا يقولون: ربنا أثبت فضلنا، ولا: ربنا أظهر أننا أصوب ممن سبقنا، بل يقولون: اغفر لنا؛ كأن أول شرط للانتماء الصحيح إلى أمة الإيمان أن يدرك الإنسان أنه ليس خاتمة الكمال، وأنه يحمل من النقص ما يجعله أحوج إلى الاستغفار من الانشغال الدائم بتوزيع أحكام الإدانة.

ثم يتسع الدعاء: ﴿وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾. سبّوهم إخواناً على الرغم من أن الزمن فصل بينهم؛ لأن أخوة الإيمان لا تقطعها القرون، ولا تحتاج إلى تعارف الوجوه حتى تتعقد. وقد لا يعرف المؤمن أسماء الملايين الذين سبقوه، لكنه يدعو لهم، ويشعر أن ما وصل إليه من نور مرّ عبر تضحياتهم وعلومهم وثباتهم. إنك حين تقرأ القرآن في أمان، أو تتعلم حديثاً، أو تجد مسجداً قائماً، فإن وراء ذلك سلسلة طويلة من أناس حفظوا ونقلوا وعلّموا وصبروا، وقد يكون بعضهم مات مجهولاً لا يعرفه التاريخ، لكن الله يعرف الموضع الذي وضع فيه حجره من بناء الأمة.

وفي قوله: ﴿سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ أدبٌ رفيع مع فضل السابقين؛ فالسبق حقيقة لا يحوها أن يأتي المتأخر بعلم واسع أو قدرة على التحليل والتقدّم. قد يرى المتأخر من الأحداث ما لم يره السابق، ويملك أدوات لم تكن في زمنه، لكنه لا ينبغي أن تتحول ميزة موقعه الزمني إلى كبر أخلاقي. فمن السهل أن تتقف بعد انقشاع الغبار فتصف أين أخطأ من كان داخل المعركة، لكن الإنصاف يقتضي أن نذكر أنك ترى النتائج التي لم يكن يراها، وأنه سار في الطريق قبل أن توضع عليه العلامات التي اهتمت بها. لا عصمة لأحد بعد الرسول ﷺ، ولا يمنع النظر

والنقد، لكن النقد شيء، وازدراء السابقين شيء آخر؛ الأول يطلب الحق، والثاني يطلب تضخيم الذات على أنقاض الرجال.

ثم يبلغ الدعاء أعماق النفس: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. لم يكتفوا بأن يسألوا الله أن يمنع ألسنتهم من الإساءة أو أيديهم من العدوان، بل طلبوا تطهير المنبع الذي تخرج منه الكلمات والأفعال: القلب. والغل حقد يتغلغل في الصدر ويستقر، فلا يعود مجرد غضب من موقف، بل يصبح طريقة في النظر إلى صاحبه؛ تُفسر محاسنه على أسوأ الوجوه، وتُستدعى أخطاؤه كلها ذكر، ويشعر الحاقد بمرارة إذا أصابه خير وبلذة خفية إذا أصابه أذى. وهذا مرض قد يلبس ثياب الغيرة على الدين أو الحرص على الحق، بينما يكون في باطنه ثأراً للنفس لم تُرد أن تعترف به.

والآية لا تطالب الإنسان بإلغاء التمييز بين الحق والباطل، ولا بمنع الغضب المشروع من الظلم، ولا بإسقاط المحاسبة؛ فالقلوب السليمة قد تختلف، وقد تنكر الخطأ، وقد تنفج بحزم في وجه العدوان. لكن الفرق عظيم بين إنكار الخطأ وبين اتخاذ الكراهية وطناً، وبين العدل مع الخطيئ وبين الرغبة في إهلاكه، وبين نقد الفكرة وبين تلوين روحك بغل دائم على صاحبها. القلب الخالي من الغل لا يعني قلباً ساذجاً لا يرى الشر، بل قلباً يرى الشر ولا يسمح له أن يستنسخ نفسه داخله؛ يقاوم الظلم من غير أن يتحول إلى ظالم، ويطلب الحق من غير أن يتغذى على التشفي.

وما أصدق اعتراف الدعاء بالعجز البشري: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا﴾. فكأن تطهير القلب من الغل ليس قراراً سهلاً يعلنه الإنسان وينتهي، بل منحة من الله تحتاج إلى ابتهال. قد يريد المرء أن ينسى الإساءة، لكنه يجدها قد مدت جذورها في ذاكرته، وقد يعفو بلسانه ثم يكتشف أن قلبه يعيد المحاكمة كل ليلة. لذلك لا يستحي المؤمن من أن يحمل جرحه إلى الله ويقول: يا رب، أنا لا أريد لهذا الألم أن يصنع مني شخصاً آخر، ولا أريد لمن ظلمني أن يظل مالِكاً جزءاً من قلبي بكرهيتي له، فطهرني دون أن تضع حقّي، واشفني دون أن تجعلني غافلاً، وأعني على أن أخرج من التجربة أكثر بصيرةً لا أكثر سواداً.

وحصّ المؤمنون بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ لأن الإيمان ينبغي أن يكون رابطة تمنع الخلاف من التحول إلى اقتلاع للأخوة. قد يختلف المؤمنون في الاجتهادات والمواقف والطباع، وقد تقع بينهم أخطاء موجهة، لكن بقاء أصل الإيمان يوجب أن يظل في القلب موضع للدعاء والإنصاف. والمأساة أن تتحول اختلافات الفروع إلى أحقاد تأكل الأصل، وأن يستحل الإنسان عرض أخيه لأنه خالفه في تقدير أو موقف، ثم يظن أن شراسة لغته دليل على صلابة دينه. إن من أخطر فتن النفس أن تمنح حقدتها اسماً شرعياً، فتجد لذة الإساءة وهي نتوهم أنها نتقرب إلى الله.

ثم يكررون النداء: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. بدأ الدعاء بـ﴿رَبَّنَا﴾ وخُتمَ بها، فكأن القلب يتحرك بين روبيتين تحيطان به: روبية تغفر الذنب، وربوبية تطهر الصدر. واختاروا من الأسماء: ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ لأن من يطلب الخلاص من الغل يحتاج إلى فيضٍ من الرأفة والرحمة. الرأفة ترفق بضعفه وجراحه، والرحمة تعيد إلى قلبه قدرته على الحب بعد أن كاد الألم يبيسه. وكأنهم يقولون: يا رب، برأفتك لا تتركنا نهلك بما نحمله في صدورنا، وبرحمتك اجعلنا رحماء بمن سبق وبمن يعيش معنا وبمن يأتي بعدنا.

وهذه الآية ترسم معياراً عظيماً لسلامة الانتساب إلى الأمة: أن تدعو لمن سبقك، وأن تحمل لإخوانك قلباً لا غل فيه. ليست وحدة الأمة مجرد اتفاق سياسي أو انتظام شكلي، بل طهارة داخلية تحفظ اختلاف أجزائها من أن يتحول إلى تمزيق. وإذا كثرت العبادات وبقي القلب يتغذى على كراهية المؤمنين، فثمة خلل في الطريق إلى الله؛ لأن العبادة التي لا تلين الصدر ولا تهذب الحكم على الناس قد تكون قد أدت صورتها ولم يبلغ نورها موضعه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَكُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

بعد مشاهد الصدق والإيثار والدعاء، تنقلنا السورة فجأة إلى الضفة المقابلة؛ إلى قوم لا يسكن الإيمان في قلوبهم، وإنما يسكنها الخوف والمصلحة، ويتقنون صناعة الكلام الذي يبدو شديداً حتى تمسه لحظة الفعل. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾؛ والرؤية هنا ليست رؤية البصر وحده، بل رؤية التعجب والاعتبار، كأن الله يدعو نبيه ﷺ وكل قارئ بعده إلى أن يتأمل هذا النموذج الإنساني المتكرر: وجه ظاهر مع جماعة، وقلب مستتر مع خصومها، ولسان يوزع الوعود في المجالس الخفية، ثم يترك أصحابها عند أول اقتراب للخطر.

وسأهم القرآن ﴿الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ قبل أن يذكر كلامهم؛ ليكشف أن العبارة مهما بدت قوية لا تفهم منفصلة عن معدن صاحبها. فللنافاق يستطيع أن يستعير لغة الشجعان، وأن يكثر من أدوات التوكيد، وأن يرفع سقف وعوده إلى الحد الذي يخدع السامع؛ لكنه لا يستطيع أن يستعير القلب الذي يحتمل ثمن الكلمة. والبلاغة حين تنفصل عن الأخلاق تتحول إلى طلاء على جدار متصدع؛ قد يبهير العين لحظة، لكنه لا يمنع البناء من السقوط.

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ أخوة لم تقم على الإيمان، بل على الالتقاء في عداوة الحق. والقرآن يكشف أن الأخوة ليست دائماً كلمة مدح؛ فقيمة الرابطة من قيمة المعنى الذي اجتمع عليه أصحابها. قد يجتمع الناس على نصرة مظلوم فتكون أخوتهم رحمة، وقد يجتمعون على كراهية الحق فتكون أخوتهم شبكة يتعاون فيها الباطل على حماية نفسه. إن وحدة الصف ليست فضيلة مجردة إذا كان الصف متجهاً إلى الظلم، والتضامن لا يصير حقاً لمجرد أن أصحابه مخلصون لبعضهم؛ فقد يتآخى اللصوص على السرقة، ويتناصر أهل الهوى على إقصاء الصادق، ويمنح بعضهم بعضاً شعوراً زائفاً بأن كثرة الموافقين تطهر الجريمة.

ثم نتوالى الوعود ثقيلةً بأدوات القسم والتوكيد: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾. لم يقولوا: سنحزن لخروجكم، أو سنعترض عليه، بل زعموا أنهم سيتركون ديارهم معهم. وهكذا يهب المنافق في الكلام ما لا ينوي أن يدفعه في الواقع؛ لأن الكلمات مجانية ما دام الامتحان بعيداً. قد يعدك بماله كله وهو يعلم أن الموقف لا يطلب منه درهماً، ويقسم أنه يموت دونك ما دام الموت فكرة مؤجلة، ويفرقك في لغة الوفاء حين لا يترتب عليها شيء. لكن الله لا يزن المواقف بارتفاع الصوت، بل بصدق الخطوة حين يحين وقتها.

﴿وَلَا نَطِيعُ فِكْرَ أَحَدًا أَبَدًا﴾؛ يضيفون إلى الوعد إطلاقاً جديداً، فينصبون أنفسهم أصحاب قرار مستقل لا يثنيهم عنه أحد. وكلمة ﴿أَبَدًا﴾ تبدو على ألسنتهم صلبة لا يدخلها احتمال، لكن القلب الذي قالها كان أضعف من أن يصبر ساعةً عند الخطر. وهذا من علامات الكذب الداخلي: المبالغة في التوكيد لتعويض فراغ اليقين. فالصادق قد تكون كلمته هادئة، لأنه يستمد قوتها من عزمه؛ أما الكاذب فيحتاج إلى رفع الصوت وتكثير الأقسام، كمن يضع حول العبارة حراساً كثيرين لأنه يعرف أنها ضعيفة من الداخل.

ثم يقولون: ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾. وقد جمعوا في وعودهم كل الاحتمالات: إن كان إخراج خرجنا، وإن كان قاتل نصرنا، حتى لا يتركوا لإخوانهم موضعاً للشك. لكن السماء كانت تسمع ما لا يسمعه أولئك المخدوعون، وترى الفراغ الواقع بين اللسان والقلب؛ فجاء الحكم الذي يهدم البناء كله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. ما قيمة ألف قسم إذا شهد الله عليك بالكذب؟ وما نفع أن تنجح في إقناع الناس وأنت مكشوف عند من يعلم السر وأخفى؟ قد تصنع حول نفسك صورةً من الوفاء، وتجمع الشهود على حسن نيتك، لكن شهادة الله تنفذ إلى المسافة المستورة بين ما تقول وما تريد.

وليس الكذب هنا مجرد مخالفة كلام لواقع سيأتي، بل انقسامٌ في الشخصية: اللسان يسير في طريق، والقلب في طريق آخر. وهذه هي أرض النفاق؛ أن يعيش الإنسان بأكثر من مركز، فيقول لكل جماعة ما يرضيها، ويبيع لكل طرف صورةً مختلفةً من نفسه، حتى لا يعود يعرف أي الوجوه وجهه الحقيقي. يظن أنه يحمي مصالحه بتعدد الأقنعة، لكنه يخسر وحدته الداخلية؛ فالصادق قد يدفع ثمن كلمته في الخارج، أما المنافق فيدفع ثمن كذبه في أعماقه، إذ يصبح قلبه ساحةً من الخوف الدائم: خوف انكشاف السر، وخوف تغير الموازين، وخوف أن يطالبه أحد بتنفيذ ما وعد.

وتضع السورة أماناً مقابلةً دقيقةً بين المهاجرين والمنافقين: المهاجرون خرجوا بالفعل ولم يكثرُوا من الحديث عن خروجهم، والمنافقون أقسموا أنهم سيخرجون ولم يخرجوا؛ أولئك تركوا الديار ابتغاءً لرضوان الله، وهؤلاء تشبثوا بالديار بعد أن وعدوا بمفارقة نصرته لحلفائهم؛ أولئك سماهم الله ﴿الصَّادِقُونَ﴾، وهؤلاء شهد عليهم بأنهم ﴿لَكَاذِبُونَ﴾. فالصادق ليس جمال العبارة، وإنما قدرة الحياة على تصديقها، وليس ما تعلنه قبل الامتحان، بل ما يبقى منك حين تبدأ التكليف.

وكم تتكرر هذه الصورة في العلاقات والمجتمعات: حليفٌ يملأ الساحة بالوعد ما دام الثمن على غيره، فإذا اقترب الخطر أعاد تفسير كلامه، وصديق يقول إنه معك في كل حال، فإذا احتجت إلى موقفٍ يزعجه اختبأ خلف الأعذار، وقائدٌ يعد المستضعفين بالوفاء ثم يجعلهم أول أوراق المساومة. والسورة لا تعلم المؤمن أن يعيش شاكاً في الناس جميعاً، لكنها تعلمه ألا يبني

مصيره على ضجيج الوعود؛ فالكلمات تُختبر بتاريخ أصحابها، والتحالفات تُقاس بمصالحها ودوافعها، ومن لم يكن له أصل أخلاقي ثابت قد يغير وجهه كلما تغيرت الرياح.

وفي داخل كل نفس مساحةٌ ينبغي أن تُفتش على ضوء هذه الآية؛ فقد لا يكون الإنسان منافق الاعتقاد، لكنه قد يحمل خصلةً من نفاق العمل حين يقول ما لا ينوي، أو يعد بما يعرف أنه لن ينجز، أو يرتدي أمام الناس صورةً تخالف خلوته. والخلاص يبدأ من ردم الهوة بين الظاهر والباطن، ومن تقليل الادعاء وزيادة الوفاء، ومن ألا تقول «أبداً» في موضع لا تملك فيه نفسك غداً. كن صادقاً في حدود قدرتك؛ فوعد قليل تنجزه خير من عهد عظيم تخدع به قلباً وثق بك، وكلمة متواضعة تحملها أفعالك خير من خطبةٍ تهتز لها القاعة ثم لا تجد لها أثراً حين ينفض المجلس.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُلَاحِظَنَّ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾

في الآية السابقة سمعنا المنافقين وهم يملأون الخلفاء بالعهود الثقيلة: سنخرج معكم، ولن نطيع فيكم أحداً، وسننصركم إذا وقع القتال؛ ثم تأتي هذه الآية فتضع كلماتهم أمام علم الله، فتساقط منها الزينة، وينكشف تحتها قلب لا يقوى على الوفاء بشيء مما قال. إنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ﴾، فقال الله: ﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾، وقالوا: ﴿لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾، فقال الله: ﴿لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾؛ وبين قولهم وقول الله تقع المسافة كلها بين الوهم والحقيقة، وبين الدعاية والعلم، وبين ما يتنى الإنسان أن يراه الناس فيه وما يعلبه الله من معدن نفسه. وما أسرع ما تنهار الكلمات حين تواجه شهادة العلم، فقد يستطيع المرء أن يصنع رواية محكمة عن دوافعه، وأن يكررها حتى يكاد يصدقها، لكن الله يرى النية قبل أن تلبس العبارة، ويرى الخوف المختبئ خلف صيحات الشجاعة، ويرى المصلحة حين تنكر في ثوب الوفاء.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾؛ لأن الحلف الذي صنعه النفاق ليس حلف مصير، وإنما هو حلف منفعة. والمنافق مستعد أن يؤيدك ما دام تأييده لا يخرججه من راحته، وأن يزين لك الصمود ما دام هو جالساً خلف جدار الأمان، وأن يدفعك إلى الخافة ما دام سقوطك لا يسحب قدمه معك، إنه يتعامل مع الخلفاء بوصفهم أدوات في معركته الخاصة؛ فإذا أدوا الوظيفة استعملهم، وإذا صاروا عبئاً تركهم، وربما أعاد كتابة الحكاية ليظهر أنه لم يعرفهم يوماً. ومن أقصى صور الخذلان أن يكشف الإنسان بعد فوات الأوان أن الصوت الذي كان يحرضه من خلفه لم يكن ينوي أن يسير معه خطوة واحدة.

ولم يقل المنافقون لإخوانهم: قاوموا ونحن ننظر، بل وعدوهم بالخروج معهم، لأن الكاذب يعرف موضع حاجة المخدوع، فيمنحه من الكلام ما يسكن خوفه. كان أولئك يخشون العزلة، فجاءهم الوعد بالرفقة، ويخشون القتال وحدهم، فجاءهم الوعد بالنصرة، ويخشون ضغط الآخرين، فجاءهم القسم ألا يطيع المنافقون فيهم أحداً أبداً. وهكذا لا يكتفي الخداع بتزييف الحقيقة، بل يدرس جرح الطرف الآخر ثم يصنع منه باباً للدخول إليه. ولذلك لا يكون الوعي الإيماني مجرد حسن ظن ساذج، بل بصيرة تفرق بين من يربط مصيره بالحق، ومن يربط كلامه بمصلحته ثم يترك لنفسه باباً سرياً للفرار.

﴿وَلَيْنَ قُوتُلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾؛ لأن لحظة القتال تنزع عن النفوس أزياءها. في أوقات السعة يستطيع الجميع أن يتحدثوا بلسان البطولة، لكن الخطر يعيد كل إنسان إلى مركزه الحقيقي: من كان مركزه الله ثبت بقدر ما يمنحه الله من الثبات، ومن كان مركزه السلامة الشخصية تراجع حين شعر أن الكلمة ستتحول إلى جرح أو خسارة. وليس المقصود أن الصادق لا يخاف؛ فقد يخاف المؤمن لأن الخوف طبيعة بشرية، لكنه لا يجعل الخوف إلهًا يقرر له موضع الحق. أما المنافق فلا يعاني الخوف فحسب، بل يخضع له، ويعيد تعريف الوفاء والواجب حتى يبدو فراره حكمةً، وخذلانه واقعيةً، وتركه أصحابه قراءةً جديدةً للمصلحة.

ثم تفترض الآية أبعد الاحتمالات: ﴿وَلَيْنَ نَصَرُوهُمْ لَيُولَنَّ الْأَدْبَارَ﴾. أي حتى لو وقع منهم شيء من النصرة، ودخلوا طرفاً في المواجهة، فلن يثبتوا، بل سيستبدرون الميدان ويفرون. والتعبير بتولية الأدبار يرسم الهزيمة في هيئة جسد انقلب عن وجهته؛ كان وجهه إلى الموقف، ثم أدار ظهره لما ادعاه. وهكذا يفعل القلب المتردد بصاحبه: يقدمه خطوةً ليحفظ صورته، ثم يسحبه خطواتٍ حين تقترب التضحية. فقد يقف المنافق في الصف لا لينصره، بل ليُرى فيه، فإذا ارتفعت كلفة الوقوف خرج منه وهو يبحث عن العبارة التي تنجي سمعته.

﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾؛ والضمير يتسع ليحمل معنى عميقاً في مآل الخذلان: إن من بنى قوته على الكذب لن يجد النصر حين يحتاج إليه، ومن جعل التحالف شبكةً من المصالح المرتعشة سيكتشف أن خيوطها تنقطع عند أول جذب. قد يظن المنافق أنه أذكى الناس لأنه لا يلزم نفسه بشيء، ويبقى قدماً هنا وأخرى هناك، لكنه في الحقيقة يحرم نفسه من كل سند صادق؛ فلا أهل الحق يثقون به، ولا أهل الباطل يجدون عنده وفاءً، ولا قلبه يستطيع أن يسكن إلى موقف. يعيش محاطاً بالعلاقات، لكنه وحيد عند الشدة، لأن من لا ينصر معنى أكبر من ذاته لا يجد معنىً يحمله حين تنهاوى ذاته.

وفي هذه الآية تحريرٌ للمؤمن من الافتتان بكثرة الوعود والأنصار المزعومين. ليست القوة في عدد الألسنة التي تقول: نحن معكم، بل في عدد القلوب التي تعرف لماذا هي معك، وفي سلامة القضية التي اجتمعتم عليها، وفوق ذلك في صلتكم بالله. قد تبدو دائرة المؤيدين واسعةً، لكن كثيراً منهم يقفون عند أطرافها ينتظرون اتجاه الغلبة، فإذا مالت الريح غادروا في صمت أو انتقلوا إلى الجهة المقابلة. أما صاحب الحق فلا يقيس حقه بعدد المصنفين، ولا يتركه إذا انفضوا؛ لأنه لم يتبعهم إليه حتى يتبعهم في الخروج منه.

والآية كذلك دعوة إلى الصدق مع الذات قبل إعلان الالتزام للآخرين. لا تعد بموقف لم تهيئ قلبك لثمنه، ولا تدفع إنساناً إلى طريقٍ لن تمشي معه فيه، ولا تستعمل حماسة الكلمات لتعويض ضعف الإرادة. إذا لم تستطع النصرة فقل كلمةً صادقةً تحفظ بها حق أخيك وحق نفسك، ولا تمنحه يقيناً زائفاً يستند إليه ثم يسقط. إن خيبة الحقيقة أهون من خيانة الوعد؛ لأن

الإنسان إذا عرف حدودك استطاع أن يبني قراره على أرضٍ ثابتة، أما إذا ملأت له الفراغ بأقسامك فقد جعلت كذبك جزءاً من حساباته، وربما دفع حياته ثمناً لشيء لم تنو يوماً أن تفعله.

الآية الثالثة عشرة: خوف من الناس يكشف غياب المعرفة بالله

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

تكشف هذه الآية مركز الاضطراب في نفوس المنافقين ومن شابههم: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾. إنهم يعرفون اسم الله، ويسمعون ذكره، وقد يستعملون لغة الدين حين تلائهم، لكن الحضور الأثقل في صدورهم هو حضور البشر. الناس أقرب إلى خيالهم من الله، وعقوبات الأرض أسرع إلى إحساسهم من عقوبة الآخرة، ونظرة الجماعة أشد ضغطاً عليهم من نظر الله. ولهذا يبدلون مواقفهم بحسب تغير القوى؛ فإذا رأوا المؤمنين أقوياء أظهروا لهم الموافقة، وإذا خلوا إلى حلفائهم وعدوهم بالنصرة، لأن البوصلة داخلهم لا تشير إلى الحق، بل إلى الجهة التي يخافونها في اللحظة الراهنة.

واختيار لفظ ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ يكشف أن الرهبة ليست معلومةً عقليةً مجردة، بل حضور نفسي يملأ الداخل ويضغط عليه. فقد يقر الإنسان بلسانه أن الله أعظم، لكن تفاصيل اختياراته تشهد بأن الناس في صدره أعظم أثراً؛ يترك المعصية إذا خاف أن يفضح، ويأتيها إذا اطمأن إلى غياب الرقيب، ويقول ما لا يعتقد كي يحفظ مكانته، ويخفي الحق لأن صاحبه لا يملك قوة تكافئ قوة الباطل. وفي تلك اللحظة لا يكون قد أنكر وجود الله بالضرورة، لكنه عطل أثر المعرفة بالله في القرار، فصار إيمانه فكرةً بعيدة، بينما أصبح خوفه من الخلق إلماً عملياً يدير يومه.

إن الخوف من الناس جزء من الطبيعة البشرية، وليس المطلوب أن يتحول المؤمن إلى حجر لا يحس بالخطر، ولا أن يقتحم الضرر بلا حكمة. لكن الفرق بين الخوف الطبيعي والرّهبة المستعبدة أن الأول شعور يمر بالقلب ثم يضبط بميزان الحق، أما الثانية فتتولى القيادة، فتعيد رسم الحق بحسب السلامة. قد يرى المؤمن سيفاً فيخاف، لكنه يعلم أن السيف لا يعمل خارج قدر الله؛ ويرى سلطاناً فيحسب حسابه، لكنه لا يمنحه سلطاناً على ضميره؛ ويعرف أن البشر قد يؤذونه، لكنه لا ينسى أنهم لا يملكون له مصيراً خارج ملك الله. بهذا لا يزول الخوف كله، بل يعود إلى حجمه، فلا يملأ الصدر حتى لا يبقى فيه موضع لخشية الله.

والعجيب أن من يشتد خوفه من الناس لا يصبح أكثر أمناً، بل أكثر اضطراباً؛ لأن الناس كثيرون، ومطالبهم متناقضة، وأمرجتهم متقلبة. إذا جعلتهم مركز بوصلتك ستعيش موزعاً بينهم: ترضي هذا فيغضب ذاك، وتخفي وجهك هنا لتظهر وجهاً آخر هناك، وتظل تراقب الانطباعات حتى تفقد إحساسك بحقيقتك. أما خشية الله فتجمع ما فرقته مخاوف الخلق؛ لأن الله واحد، ورضاه لا يتبدل بتبدل المصالح، ومن استقام له استراح من عبودية التلون. قد لا يرضى عنه الناس جميعاً، لكنه يملك قلباً واحداً ووجهاً واحداً، وتلك وحدة داخلية لا يعرف قيمتها إلا من أنهكتها الأفتعة.

ثم تفسر الآية الخلل بقولها: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾. لم تقل: لا يعلمون، فقد تكون لديهم معلومات كثيرة، وإنما قالت: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ لأن الفقه نفاذ إلى حقيقة الشيء وما وراء ظاهره. إنهم يرون المؤمنين أمامهم ولا يرون الله الذي أيدهم، ويرون السلاح ولا يرون اليد العليا التي تحكم أثره، ويرون الخطر القريب ولا يرون المال البعيد، فحبستهم أعينهم في سطح الحدث. ولو فقهوا لعلموا أن خوف الله هو الذي يحررهم من المخاوف الصغيرة، وأن من فر من الحق خشية الخلق لم ينجُ من سلطان الخالق، وأن البشر الذين يخشاهم لا يملكون لأنفسهم دفع الموت ولا جلب الحياة.

إن نقص الفقه ليس دائماً نقصاً في الذكاء، فقد يكون المرء حاد العقل في تدبير مصالحه، بارعاً في قراءة موازين القوى، لكنه أحمق في السؤال الأكبر: إلى أين ينتهي كل ذلك؟ قد يعرف كيف يحفظ موقعه اليوم ولا يعرف أنه يخسر نفسه غداً، وبحسب خطوات الخصوم بدقة ولا بحسب خطوة الموت التي تتقدم نحوه بصمت، ويدرس نقاط ضعف الآخرين ولا يرى الثقب المفتوح في قلبه. فالعقل إذا انفصل عن نور الوحي قد يصير آلة دقيقة في خدمة غاية فاسدة، كمن يمتلك خريطة ممتازة لكنه اختار الوجهة الخطأ.

وهنا يظهر معنى عظيم من معاني معرفة الله: كلها عظمت معرفة العبد بربه صغرت الأشياء في مواضعها الصحيحة، لا لأنه ينكر قوتها، بل لأنه يراها مخلوقة محدودة. يعرف الله العزيز فلا يذل قلبه لقوة عارضة، ويعرف الله الحكيم فلا ينهار إذا لم يفهم أول الطريق، ويعرف الله القدير فلا يحبس المستقبل داخل ضيق الحاضر، ويعرف الله الرقيب فلا يستخف بخلو غابت عنها عيون البشر. إن الأسماء الحسنى التي ستشرق في ختام السورة تبدأ آثارها هنا؛ فعرفة الأسماء ليست حفظاً لألفاظها، بل تحريراً للنفس من الآلة الصغيرة التي نصبته المخاوف في الصدر.

الآية الرابعة عشرة: جدران تجمع الأجساد وقلوب يفرقها الباطل

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾

تنقلنا الآية إلى مشهد يبدو فيه الخصوم مجتمعين، مستترين داخل القرى المحصنة أو وراء الجدر، لكن القرآن لا يقف عند البناء الخارجي، بل ينفذ إلى ما وراءه: جدران قوية، وصفوف تبدو متراسة، وأصوات متشابهة، غير أن القلوب في الداخل متفرقة، يشد كل واحد منها إلى غاية مختلفة. ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾؛ فهم لا يطمثون إلى قوة المعنى الذي يجمعهم، فيحتاجون إلى كثافة الحواجز. لا يواجهون من فضاء اليقين، بل من مخبأ الخوف؛ والجدار هنا ليس بناءً ماديًا فحسب، بل رمزًا لكل حاجز يحاول الإنسان أن يعوض به ضعف الداخل.

وقد تكون التحصينات مشروعة في ذاتها، فالحكمة لا تقتضي إهمال أسباب الحماية، لكن الآية تكشف حال قوم صارت الجدران عندهم بديلاً من الثبات، لا وسيلة في يد الثابتين. والفرق كبير بين مؤمن يتخذ السبب وقلبه مع الله، وبين خائف يعبد السبب لأنه لا يملك وراءه يقيناً. الأول قد يقاتل من وراء الجدار أو أمامه بحسب الحكمة، لكنه لا يظن أن نجاته خرجت من سلطان الله؛ أما الثاني فيرتبط بالجدار حتى إذا تصدع جزء منه تصدعت معه روحه، لأن كل أمنه كان معلقاً بالحجر.

﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾؛ وفي العبارة مفارقة تكشف أين تذهب القوة حين يفسد المقصد. إنهم قد يبدون عاجزين أمام مواجهة الحق مواجهة صادقة، لكن بأس بعضهم على بعض شديد؛ يتنازعون المصالح، ويتبادلون الاتهامات، ويتنافسون على النجاة الفردية، ويخشى الحليف حليفه بقدر ما يخشى خصمه. فالاجتماع على الباطل لا يزيل الأناية، بل يؤجل انفجارها ما دامت هناك منفعة مشتركة؛ فإذا ضاقت الغنيمة أو اقترب الخطر عاد كل طرف إلى نفسه، وظهرت الشقوق التي كانت الشعارات تغطيها.

وهذا قانونٌ يتجاوز سياق المعركة إلى حياة الجماعات كلها: إذا لم يجمع الناس حقاً أعلى من مصالحهم، فإن المصالح نفسها التي جمعهم ستفرقهم حين تتعارض. قد يتحدون ضد خصم، لكن وحدتهم تظل مرهونة ببقاء الخصم؛ فإذا غاب أخذوا يحشون عن عدو داخلهم يحفظ تماسكهم المؤقت، فتشتد بينهم الصراعات. أما الوحدة الحقيقية فلا تقوم فقط على كراهية شيء مشترك، بل على محبة حق مشترك؛ لا يكفي أن نعرف ما نرفضه، بل ينبغي أن نعرف ما الذي نريده، وأي قيمة تجعل كل واحد منا مستعداً أن يرد شهوته إذا أضرت بالجماعة.

ثم تأتي العبارة التي صارت ميزاناً نافذاً في فهم المجتمعات: ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾. العين تراهم جميعاً، لأن أجسادهم في موضع واحد، وشعاراتهم متشابهة، ومصالحهم الظاهرة

متقاطعة؛ لكن الله يرى القلوب، وهناك تبدد صورة الوحدة. فهذا يريد النجاة بنفسه، وذاك يطلب الصدارة، وثالث ينتظر لحظة الانقلاب على رفاقه، ورابع يخشى انكشاف ماضيه، وخامس لا يؤمن بالقضية كلها لكنه وجد في الانتماء إليها طريقاً إلى منفعة. إن الاجتماع المكاني لا يصنع وحدة، كما أن التشابه في اللباس واللغة لا يصنع قلباً مشتركاً؛ فقد تجلس جماعة حول مائدة واحدة، وكل واحد منهم في جزيرة من الظنون والخوف.

واختيار كلمة ﴿شَتَّى﴾ يصور التفرق لا على هيئة انقسام بسيط إلى طرفين، بل تشظياً في اتجاهات كثيرة. ليست قلوبهم قلبين مختلفين، وإنما قلوب متناثرة، لكل منها قبة سرية. وهذا هو الثمن الباطني للنفاق؛ فالنفاق لا ينقسم عن الآخرين فقط، بل ينقسم عن نفسه، ثم يأتي بجماعته إلى اجتماع منقسم، فتكون الكثرة الظاهرة حشداً من الوحدات الخائفة لا كياناً حياً. يشبهون حبات الرمل التي قد تتراكم في كومة كبيرة، لكنها لا تتماسك إذا هبت الريح؛ لأن المجاورة جمعتها ولم تربط بينها جذور.

أما المؤمنون فليست وحدتهم تعني تطابق الطباع والعقول، ولا اختفاء كل اختلاف، وإنما أن تتجه القلوب المتنوعة إلى قبة واحدة، وأن تحتكم عند النزاع إلى ميزان أعلى من أهوائها. قد يختلفون في الرأي، لكنهم لا يختلفون على قيمة الحق؛ وقد تعدد اجتهاداتهم، لكنهم لا يحولون الاختلاف إلى شهوة اقتلاع؛ وإذا أخطأ بعضهم في حق بعض وجدوا في التقوى طريقاً للرجوع. الوحدة الإيمانية ليست إلغاءً للتنوع، بل جمع له حول مركزٍ يمنعه من التحول إلى تمزق.

ثم تحتم الآية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾. وفي الآية السابقة وصفهم بأنهم لا يفقهون، وهنا بأنهم لا يعقلون؛ فكأن الخلل ضرب أدوات الإدراك كلها. والعقل في دلالته قيد يمنع صاحبه من الاندفاع إلى المهلكة، لكن هؤلاء لم تعقلهم بصيرتهم عن بناء تحالف يقوم على الكذب والخوف. ولو عقلوا لعرفوا أن الجماعة لا تبنى من خارجها أولاً، وأن كثرة الجدر لا تعالج تفرق القلوب، وأن الخطر الداخلي قد يكون أشد من العدو الخارجي. إنهم يعالجون ضعفهم بالمزيد من التحصين، بينما موضع النزف في داخلهم؛ كمن يطلي جدران البيت كل يوم، ولا يلتفت إلى أساسه الذي تأكله المياه.

وكم من إنسان يعيش هذه الآية وحده: تراه متماسكاً في الخارج، منظم المظهر، محاطاً بإنجازاته وعلاقاته، لكن قلبه شتّى؛ جزء منه يريد الله، وجزء يريد ثناء الناس، وجزء يركض خلف شهوة، وجزء يخاف من ماضٍ لم يتصالح معه. يحسبه الناس جميعاً وهو في داخله جماعات متنازعة. ولا يبدأ شفاؤه بإضافة جدار جديد إلى صورته، بل يجمع قلبه على الله؛ أن تصبح له غاية كبرى ترتب الغايات الصغيرة، ومرجعية واحدة تحاكم الرغبات المتعارضة، وصدق يرد ظاهره وباطنه إلى وجه واحد.

﴿كَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

تلقت الآية إلى جماعة سبقتهم بوقت قريب، ذاقوا عاقبة أمرها، فكان ينبغي أن تكون قصتها مرآة لمن بعدها؛ لكن قرب العبرة لم يمنع تكرار الغرور. ﴿كَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾؛ لم تكن الحادثة غارقة في تاريخ بعيد يمكن للنفس أن تنوهم اختلاف قوانينه، بل كانت قريبة في الزمن والذاكرة، وآثارها لم تبرد بعد. ومع ذلك يستطيع الهوى أن يقف أمام المصير نفسه ويقول لصاحبه: أنت استثناء، وما وقع لغيرك لن يقع لك، لأنك أذكى، أو أقوى، أو أحسن تدبيراً. وهكذا لا تعجز البشرية عن معرفة التاريخ بقدر ما تعجز عن رؤية نفسها داخله.

إن الإنسان كثيراً ما يقرأ سقوط الآخرين بوصفه خبراً عنهم، لا إنذاراً له. يرى المتكبر الذي أدله كبره، ثم يحتفظ بكبره لأنه يتخيل أن صورته منه ألطف؛ ويرى الحريص الذي أهلكه المال، ثم يواصل عبادة المال لأنه يسمي حرصه تخطيطاً؛ ويرى جماعة مزقتها الأحقاد، ثم يزرع الأحقاد نفسها وهو يزعم أن قضيته أظهر من أن تنطبق عليها السنن. المشكلة ليست في غياب الأمثلة، فالعالم ممتلئ بخرائب تكاد تنطق، وإنما في أن النفس تصنع بين ذاتها وبين العبرة حاجزاً من التبرير، فتقول كلما رأت مصيراً: أولئك كانوا غيرنا.

﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾؛ والدوق تجربة مباشرة لا خبر يُروى، فقد انتقلت عاقبة فعلهم من فكرة إلى إحساس، ومن تحذير يسمعون به إلى مرارة يعيشونها. و﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ هو سوء عاقبته ونقله الذي رجع عليهم؛ فأمرهم الذي اختاروه بأيديهم عاد إليهم وبالاً، وكأنهم طبخوا لأنفسهم طعاماً مسموماً ثم جلسوا إلى مائدته. وهذا من عدل السنن: كثير من العقوبات تنبت من داخل الأفعال ذاتها؛ فالكذب لا ينتظر دائماً عقوبة منفصلة، إذ يكفي أن يحرم صاحبه الطمأنينة والثقة، والحسد يحمل ناره معه فيحرق قلب الحاسد قبل أن يبلغ المحسود، والظلم يفسد المجتمع الذي يحمي الظالم نفسه، والشح يحبس صاحبه في فقر الشعور ولو كثرت أمواله.

ولفظ ﴿أَمْرِهِمْ﴾ يرد المسؤولية إليهم؛ لم يكونوا حجارةً ساقها القدر بلا اختيار، بل كان لهم أمر وموقف وتدبير، ثم كان لذلك الأمر وباله. الإيمان بالقدر لا يلغي مسؤولية الإنسان، بل يضع اختياره داخل علم الله وسلطانه من غير أن ينفي عنه المحاسبة. فالعبد لا يخلق نفسه ولا قدرته ولا الظروف المحيطة به، لكنه يمتحن فيما أعطي من إرادة، ولهذا لا يستطيع أن يتخذ القدر حجة بعد أن أرسل إليه الرسول ويُن له الطريق. ومن الغفلة أن ينسب نجاحه إلى ذكائه، ثم إذا واجه عاقبة خطئه نسبها كلها إلى القدر، يستقل بالفضل حين يرضيه، ويتبرأ من المسؤولية حين تؤلمه.

ثم تقول الآية: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فما ذاقوه من وبال أمرهم في الدنيا ليس آخر الحساب، لأن بعض الجرائم أوسع من أن تستوفي الأرض جزاءها. وقد يكون الألم الدنيوي آيةً توقظ

صاحبها فيتوب، فإذا لم يتب، وبقي على عناده حتى لقي الله، انتقل من وبال منقطع إلى عذاب أليم. إن الجمع بين التاريخ والآخرة يمنح العبرة عمقها الكامل؛ فالتاريخ يكشف بعض آثار الذنوب، لكنه لا يعرض الحساب كله. قد نرى سقوط مشروع ظالم، ولا نرى آلام من ظلمهم ولا ما أعد له عند الله، وقد يموت صاحب الباطل قبل أن يرى انهيار ما بنى، لكن موته لا يطوي الصفحة، بل ينقله إلى المحكمة التي لا تضيع فيها الذرة.

وهذه الآية تسأل كل جيل: ماذا فعلتم بذاكرة من قبلكم؟ هل جعلتموها حكمة تمنع تكرار الأخطاء، أم حولتموها إلى حكايات تروى للتسلية أو مادة للشماتة؟ إن الوفاء للتاريخ ليس في كثرة الاحتفال به، بل في القدرة على استخلاص سننه. قد يحفظ الناس أسماء الوقائع وتواريخها، ثم يعيدون إنتاج أسبابها: يجردون وحدة قديمة وهم يزعمون الفرقة، ويكون على عدل مضى وهم يسكتون عن ظلم حاضر، وبلعنون طغاة الأمس ثم يصنعون لطغاة اليوم المبررات نفسها. عندئذ لا تكون الذاكرة وعياً، بل ستاراً جديداً للغفلة.

والعبرة الحقة لا تقول لك فقط: لا تكن مثل أولئك، بل تدعوك إلى تحديد الشيء الذي جعلهم أولئك؛ ما الفكرة الأولى التي تسلت إلى نفوسهم؟ وما التبرير الذي فتح باب السقوط؟ وما اللحظة التي كان يمكنهم فيها الرجوع ثم أصروا؟ لأن النهايات الكبيرة تبدأ غالباً بانحرافات صغيرة لا تثير الانتباه. الحصن الذي خرّ لم يسقط في اللحظة التي رآه الناس فيها يتهاوى، بل بدأ سقوطه يوم دخل الغرور قلب صاحبه، ويوم آثر المصلحة العاجلة على العهد، ويوم ظن أن قرب من صور الصالحين يغنيه عن صدق الصلاح.

وهكذا تضع الآية أمام الإنسان مرآة التاريخ، لكن المرآة لا تنفع من يغلق عينيه. و«أولو الأبصار» الذين نادتهم السورة في أولها لا يمرون على الخرائب مرور السائح، بل يسمعون فيها سؤال المصير: أي شيء فينا يشبه ما كان فيهم؟ وما الحصن الذي نظنه خالداً؟ وما العاقبة التي رأيناها قريبة ثم أقنعنا أنفسنا أننا بمنأى عنها؟ إن النجاة لا تبدأ من الاعتقاد بأننا أفضل ممن سبق، بل من الخوف الصادق أن نكرر فينا أسباب سقوطهم، ومن اللجوء إلى الله أن يهينا بصيرة تجعل مآسي التاريخ نوراً في الطريق، لا مجرد قبور جديدة تضاف إلى الطريق نفسه.

الآية السادسة عشرة: الشيطان الذي يدفع إلى الهاوية ثم يتبرأ عند السقوط

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

بعد أن شبهت الآية السابقة هؤلاء بمن سبقهم قريباً فذاقوا وبال أمرهم، تفتح هذه الآية نافذةً على النموذج الأقدم والأعمق لكل خذلان: نموذج الشيطان الذي لا يملك أن يجبر الإنسان على الكفر، لكنه يزين له الطريق، ويخفف في عينه الجريمة، ويغري بالخطوة الأولى، حتى إذا قطعها العبد بإرادته، ووجد نفسه في العراء بعيداً عن أمان الطاعة، أعلن الشيطان براءته منه. وهكذا تكشف الآية البنية الخفية للتحريض المناق، فالمناقون الذين وعدوا إخوانهم بالنصرة، ثم تركوهم عند وقوع الشدة، لم يبتكروا طريقتهم، وإنما ساروا على أقدم منهج في صناعة الضحايا: ادفع غيرك إلى المواجهة التي تحقق غرضك، ثم انسحب حين يأتي موعد دفع الثمن.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾؛ تأتي كلمة ﴿اكْفُرْ﴾ في صيغة الأمر عاريةً هنا، لكن الشيطان في الواقع لا يعرضها دائماً بهذا الوضوح؛ فهو يعلم أن كثيراً من النفوس ستفزع إن رأت النهاية منذ البداية، فيجزئ الطريق إلى خطوات صغيرة، ويضع على كل خطوة اسماً ألطف من حقيقتها. قد لا يقول للإنسان: اكفر، وإنما يقول: لا تتعجل الالتزام، لا تجعل الدين يضيق عليك، هذه زلة عابرة، وهذه شهوة لا تضر، وهذه فريضة يمكنك تأجيلها، وهذا الحق لا يلزمك في هذا الظرف، ثم يقوده من تنازل إلى آخر حتى يجد نفسه في الموضع الذي كان يظن أنه لن يبلغه يوماً. إن الانحرافات الكبرى لا تدخل النفس دائماً من بابٍ عريض، بل تتسرب من شقوق التبرير، تبدأ باستثناء صغير، ثم يتحول الاستثناء إلى عادة، والعادة إلى هوية، والهوية إلى دفاع مستميت عن الباطل.

والشيطان لا يخلق في الإنسان شهوته، لكنه يعزف عليها، لا يصنع فيه حب المال أو الجاه أو السلامة، لكنه يعيد ترتيبها حتى تصير فوق أمر الله. يأتي كل نفس من الباب الذي يناسب ضعفها: يخوف الجبان، ويطمع الحريص، ويمدح المتكبر، ويؤجل للتائب، ويزين للعالم تأويلاً يحفظ به منزلته، ويغري العابد بالعجب حتى يجعل عبادته ستاراً لنفسه. وقد يترك الإنسان بعض المعاصي لا لأنه يريد له الطهارة، بل لأنه يريد أن ينفذ إليه من باب الغرور بالطاعة، فيهمس له: أنت أفضل من غيرك، أنت بلغت منزلة لا تضرك معها زلة، حتى يتحول الصلاح في وعيه من افتقارٍ إلى الله إلى شعورٍ بالأمان من مكروه.

غير أن الآية ترد المسؤولية إلى الإنسان: ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾. لم تقل: فلما أكفره الشيطان، لأن الإنسان هو الذي استجاب واختار. يستطيع الشيطان أن يدعو ويزين ويعد ويخوف، لكنه لا يملك أن ينتزع من العبد إرادته ثم يضع الكفر فيها قسراً. وهذه الحقيقة تقطع الطريق على عادة النفس في تعليق ذنوبها على الخارج؛ فقد يقال: أفسدني فلان، أو أغراني المجتمع، أو دفعني

الظروف، وكل ذلك قد يكون من أسباب الفتنة، لكنه لا يحو مساحة الاختيار التي سيُسأل عنها الإنسان. البيئة تؤثر، والصحة تفتح الأبواب، والضغط قد يشتد، لكن الله لا يحاسب العبد إلا على ما آتاه من قدرة، ولا يظلمه مثقال ذرة.

وما أشد لحظة الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾؛ فما إن أدى الإنسان الوظيفة التي أرادها الشيطان حتى انتهت قيمة العلاقة. لم يكن الشيطان صديقاً له منذ البداية، ولم يكن حريصاً على حريته أو سعادته، وإنما كان يريد أن يخرج من النور الذي حُرِمَ هو منه. وحين سقط الإنسان لم يمد له يد، بل تبرأ منه. وهذه طبيعة كل علاقة تُبنى على المعصية والمصلحة الفاسدة؛ فقد يزين لك صاحب السوء الخطيئة، ويقسم أنكما شريكان في الطريق، ثم إذا انكشف الأمر دفعك إلى الواجهة وغسل يديه من دم قرارك، وقد يحرضك صاحب مشروع على تجاوز الحق، فإذا جاءت المحاسبة قال: أنت الذي اخترت، ولم أجبرك.

﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾؛ إنها الجملة التي تختبئ في نهاية كل تحالف لا يقوم على التقوى. قد تتأخر البراءة حتى تتقضي المنفعة، وقد تلبس لغةً سياسيةً أو اجتماعيةً مهذبة، لكن جوهرها واحد: لم أعد محتاجاً إليك. والإنسان الذي يطلب عزته من جماعة لا تحشى الله يضع مصيره في يد من قد يتخلى عنه عند أول تحول. أما الأخوة في الله فبنى على النصيحة قبل السقوط، لا على التصفيق الذي يدفع إليه؛ فصديقك الصادق ليس من يوافقك في كل ما تشتهي، بل من يخاطر برضاك كي ينقذك من خطئك. قد تؤلمك كلمته الآن، لكنها تحميك من ألم أبعد، بينما يرمحك المنافع في اللحظة التي تحتاج فيها إلى من يوقظك، ثم يتركك وحدك أمام العاقبة.

ثم يقول الشيطان: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. وليس هذا خوفاً صالحاً يرده إلى التوبة والطاعة، بل اعتراف متأخر لا ينفع، واستعمال لاسم الله في لحظة التبرؤ من الضحية. يعرف الشيطان أن الله رب العالمين، لكنه لم يعبد الله بمقتضى هذه المعرفة؛ فالمعرفة التي لا تورث خضوعاً قد تقوم بها الحجة على صاحبها بدل أن تكون نجاةً له. ليست القضية أن تعلم أن الله موجود وقادر وشديد العقاب فحسب، بل أن يتحول علمك إلى سجود وانقياد. فقد عرف إبليس الأمر، وسمع الخطاب، وشهد من الآيات ما لم يشهده كثير من البشر، لكن الكبر حال بين المعرفة والثمره، فصار علمه ناراً تزيد حسرةً ولا تقوده إلى هدى.

وفي العبارة سخرية مريرة من خداع الشيطان: يأمر الإنسان بالكفر، ثم يدعي الخوف من رب العالمين. أي خوف هذا الذي لم يمنعه من التحريض على المعصية؟ إنه خوف المجرم من العقوبة لا خشية العابد التي تمنعه من الجريمة. فالخشية الصادقة تسبق الفعل فتقيم بين العبد والذنب حاجزاً، أما الخوف الذي يأتي بعد إفساد الآخرين ثم يُستعمل عذراً للتخلي عنهم فليس فضيلةً، بل صورة أخرى من الأنانية. إنه يقول للإنسان في النهاية: تحمل وحدك ما دعوتك إليه، فقد انتهت مهمتي.

والآية تكشف كذلك أن أشد الشياطين خطراً ليس دائماً ذلك الصوت الذي يدعوك إلى الشر الصريح، بل من يتكلم بلسان المصلحة والنصح، ويشعرك أنه يخاف عليك، بينما يسوقك إلى ما يحقق غايته. قد يأتيك الباطل في ثياب الصديق، ويطلب منك التضحية ليحفظ هو مكاسبه، ويصف تهورك بالشجاعة ما دام بعيداً عن عواقبه. ولذلك يحتاج القلب إلى ميزان الوحي، لا إلى حرارة الكلمات وحدها؛ يسأل عن حقيقة الطريق ومآله، وعن صدق من يدعوه، وعن موافقة النصيحة لمراد الله. فلا يكفي أن يقال لك: أنا معك؛ بل انظر: إلى أين يريد أن يأخذك؟ ومن المستفيد من خطوتك؟ وهل يقف معك أمام ثمنها، أم ينتظر عند باب النجاة ليقول: إني بريء منك؟

وفي داخل النفس شيطانٌ من الهوى يعدُّ ثم يخذل؛ تقول لك الشهوة: ساعةٌ من اللذة ثم تعود كما كنت، فإذا اتبعتها تركتك مع وحشة القلب، ويقول لك الغضب: قل هذه الكلمة لتستريح، فإذا قلتها انطفأت حرارة اللحظة وبقي جرحها فيمن تحب، ويقول لك الكبر: لا تعتذر حتى تحفظ مقامك، فإذا طال الجفاء اكتشفت أنك حفظت صورةً صغيرةً وخسرت قلباً كبيراً. كل معصية تعد صاحبها بشيء ثم تثبراً منه بعد أن تأخذ ثمنها، فلا تبقى اللذة كما كانت، ولا يزول الأثر بسهولة، ويجد الإنسان نفسه وحده أمام خرابٍ شارك في بنائه.

﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾

بعد حوار الإغراء والتبرؤ تُسدل الآية الستار على مصير الطرفين: الشيطان الذي أغوى، والإنسان الذي استجاب. قد يتبرأ أحدهما من الآخر في الدنيا، وقد يحاول كل طرف أن يحمل صاحبه المسؤولية، لكن براءة اللسان لا تفصل بينهما أمام عدل الله، لأن الاشتراك في طريق الباطل جمعهما في العاقبة وإن تفرقا عند الخطر. ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾؛ والعاقبة هي آخر الطريق الذي لا يظهر لمن افتتن بأوله. ففي بداية المعصية وعد ولذة وشعور بالتححرر، وفي وسطها اعتياد يضعف حساسية القلب، أما في نهايتها فتتكشف حقيقتها التي كانت مستورة تحت الزينة.

وهذا هو السؤال الذي يريد القرآن أن يزرعه في العقل قبل كل اختيار: ما عاقبة هذا الأمر؟ لا كيف يبدو الآن، ولا ماذا سيقول الناس عني في هذه اللحظة، ولا ما اللذة القريبة التي يعدني بها، بل إلى أي إنسان سيحولني؟ وإلى أي موضع يقود قلبي؟ وكيف سألقى الله بعد أن يكتمل الطريق؟ إن الحيوان تحكمه اللحظة المباشرة، أما الإنسان فقد وهبه الله القدرة على تصور المال، فإذا عطّلها وعاش أسير العاجل هبط عن مقام عقله. والحكمة ليست أن تعرف كيف تبدأ الأشياء فقط، بل أن ترى نهاياتها مخبئة في بذورها؛ فالشجرة كلها قد تكون كامنة في حبة صغيرة، والعاقبة الكبرى قد تبدأ بخاطر لم يدفعه القلب.

﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ يجتمع الداعي والمستجيب في النار، لكن اجتماع العاقبة لا يعني تساوي تفاصيل المسؤولية، فالله يحكم بينهما بعلمه وعدله. غير أن الإنسان لا يستطيع أن يحتج بأن غيره دعاه؛ فالشيطان سيعلن تبرؤه، وأصحاب السوء سيتخاصمون، والزعماء المضلون لن يحملوا عن أتباعهم أوزار الاختيار. وقد أخبر القرآن في مواضع أخرى أن الأتباع والكبراء يتلاعنون ويتبادلون الاتهام، لكن الخصومة داخل النار لا تفتح باباً للخروج منها. ما أشد أن يبيع المرء آخرته إرضاءً لشخص سيتبرأ منه، أو خوفاً من جماعة لن تدخل قبره معه، أو طاعةً لقائد لا يملك لنفسه يوم القيامة نفعاً ولا ضراً.

وبأني وصف الخلود ليكشف التفاوت الهائل بين اللذة العابرة والعاقبة الباقية. كم تستغرق المعصية؟ لحظة أو ساعة أو أعواماً محدودة تنتهي بالموت، لكن الكفر الذي يلقي الله به يقود إلى خلود لا تقاس مدته بأعمار الدنيا. وليس في ذلك ظلم؛ لأن الكفر ليس خطأً زمنياً معزولاً فحسب، بل موقفٌ مستقر من الحقيقة، يلقي به الإنسان ربه بعد قيام الحجة وإغلاقه أبواب الرجوع على نفسه. ولو ترك الكافر إلى غير نهاية على الحال نفسها لاستمر على ما اختاره؛ فجاء الجزاء موافقاً لاستقرار الإرادة التي مات عليها.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾؛ فالكفر ظلم، لأنه وضع للعبودية في غير موضعها، وإنكارٌ لحق المنعم، وظلمٌ للنفس بإبعادها عن مصدر حياتها. والشیطان ظالم لأنه دعا إلى الهلاك، والإنسان ظالم لأنه استجاب، والمنافقون ظالمون لأنهم أغروا حلفاءهم ثم خذلوهم، وأولئك ظلموا أنفسهم حين وثقوا بوعود الكاذبين وجعلوا حصونهم مانعةً من الله. تتعدد صور الظلم، لكن جامعها أن يُزاح الحق عن موضعه، وأن يقيم الهوى مكانه.

والآية لا تذكر النار لتشيع خيالاً يتلذذ بعذاب الآخرين، بل لتوقظ القلب قبل أن يصير الإنذار خبراً شخصياً عنه. ذكر العقاب رحمةً في زمن الإمكان؛ فالطريق الذي توضع عند بدايته لافتة تحذر من الهاوية أكثر رحمةً من طريقٍ يترك سالكة حتى يسقط. ومن تمام محبة الله لعباده أنه لم يخفِ عنهم نهاية العصيان، ولم يزين لهم الدنيا ثم يفاجئهم بالحساب، بل أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وضرب الأمثال، وفتح باب التوبة ما دامت الروح في الجسد. ولذلك لا ينبغي أن يحول الشيطان الحديث عن النار نفسه إلى بابٍ لليأس؛ فكما أن الله شديد العقاب، فهو الذي يدعوك الآن إلى النجاة، وما دام القلب يستطيع أن يندم، واللسان يستطيع أن يستغفر، والجوارح تستطيع أن تصلح، فإن الطريق إلى الله لم يُغلق.

وفي الانتقال من الشيطان والإنسان إلى ﴿الظَّالِمِينَ﴾ تعميمٌ يمنع القارئ من حصر المثل في شخصين بعيدين. كل من شارك في صناعة الضلال، أو دفع غيره إلى معصية، أو زين له الباطل ثم تبرأ من أثره، يحمل نصيباً من هذا النموذج. وقد يكون التحريض بكلمة، أو بصورة، أو كتابة، أو قدوة سيئة، أو فتوى متساهلة صُنعت لإرضاء صاحب قوة. وربما مات المحرّض وبقي أثره يعمل في الناس؛ ولذلك كان من أخطر ما يحملُه الإنسان أن يترك خلفه باباً مفتوحاً إلى الشر. وكما تُكتب الحسنات لمن سنَّ خيراً، تتكاثر السيئات على من جعل ضلاله قابلاً للانتشار.

فليحذر الإنسان أن يكون شيطاناً لغيره وهو لا يشعر، أن يستهزئ بصديق لأنه أراد الاستقامة، أو يخفف في عينه ذنباً حتى يقدم عليه، أو يدفعه إلى قرارٍ فاسد ثم يقول عند العاقبة: لم أجبرك. صحيح أنك لم تسلبه إرادته، لكنك قد شاركت في إضعاف مقاومته، وزينت له ما كان قلبه ينكره. ومن رحمة المؤمن بإخوانه ألا يعينهم على النسخة الأسوأ من أنفسهم، بل يذكّرهم بالنسخة التي يحب الله أن يكونوا عليها؛ لا يصفق لضعفهم كي يكسب ودهم، ولا يستثمر غضبهم لمصلحته، وإنما يكون باباً إلى النجاة، ولو خسر لحظةً من رضاهم.

الآية الثامنة عشرة: وقفة الحاضر أمام الغد الذي لا يغيب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

بعد أن طافت السورة بمشاهد الإخراج والخذلان، والصدق والنفاق، والإيثار والشح، والتحريض والتبرؤ، تلتفت إلى المؤمن التفاتة مباشرة، كأنها تمسك بيده وتخرجه من صفوف المتفرجين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. لم يعد الحديث عن بني النضير، ولا عن المنافقين، ولا عن الشيطان والإنسان الذي أطاعه؛ الآن أنت المخاطب، وقلبك هو الساحة، وغدك هو القضية. إن قصص الآخرين لا تؤدي وظيفتها القرآنية حتى تتحول إلى محاسبة للذات؛ فليس المقصود أن تنتهي من قراءة مصائرهم وأنت أكثر شعوراً بسلامتك، بل أن تصبح أكثر خوفاً من البذور التي أنبت مصائرهم إذا وجدت شيئاً منها فيك.

ويناديهم بوصف الإيمان قبل أن يأمرهم بالتقوى، لأن الإيمان الصادق ليس لقباً يمنح صاحبه حصانة من المحاسبة، بل عهد يقتضيها. وكلما ارتفع مقام العبد في المعرفة اشتدت حاجته إلى مراقبة قلبه؛ فقد يتسلل الغرور من باب الطاعة، ويظن المرء أن انتسابه إلى الحق يغنيه عن تجديد الصدق. لكن الله لا يقول: يا أيها الذين آمنوا اطمئنوا إلى أسمائكم، بل يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾. فالإيمان بداية طريق يحتاج في كل خطوة إلى تقوى تحرسه، كما يحتاج النور إلى زجاجة تصونه من الريح.

والتقوى ليست خوفاً قائماً يشل الحياة، بل يقظة تجعل بينك وبين سخط الله وقاية؛ محبة تخشى أن تفقد قربه، ومعرفة تمنعك من الاستهانة بنظره، وبصيرة ترى وراء الفعل أثره. المتقي لا يعيش مذعوراً من الله كمن يخشى ظالماً يربص به، بل يعيش حذراً من نفسه، مستجيراً بعذل الله ورحمته. يخاف أن يحجبه الذنب عن النور الذي ذاقه، وأن تسرق الشهوة منه حريته، وأن يقف غداً أمام ربه حاملاً أشياء كان يستطيع أن يتطهر منها اليوم.

ثم تأتي الجملة التي تختصر مشروع المحاسبة كله: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾. لم يقل: ولتنظروا جميعاً، بل أفرد النفس، كأن كل إنسان سيقف وحده أمام صحيفته، لا يختمي بجماعته ولا يذوب في أخطاء عصره. قد يضل مجتمع كامل، لكن كثرة السائرين لا تحول الطريق الخطأ إلى صواب؛ وقد تشيع الخطيئة حتى تصبح مألوفة، لكن الألفة لا تحو عنها اسمها عند الله. في ذلك الموقف سيخرج الفرد من كل الجموع التي كان يختبئ فيها، ويقال له: اقرأ كتابك؛ ولذلك يخاطبه القرآن الآن بوصفه نفساً منفردة مسؤولة.

و﴿تَنْظُرْ﴾ ليست نظرة عابرة، بل تأملٌ وفحصٌ وثبت؛ كالتاجر الذي يراجع حساباته قبل أن يأتي موعد الإغلاق، لكنه هنا يراجع تجارة العمر. ماذا قدمت؟ لا ماذا تمنيت، ولا ماذا تحدثت عنه، ولا الصورة التي صنعتها أمام الناس، بل ما الذي سبق من يدك وقلبك إلى الله؟ هناك أعمالٌ كبيرة في أعين الخلق قد لا نتقدم إلى الآخرة لأنها حملت على مركب الرياء،

وأعمالٌ صغيرة لا يلتفت إليها أحد تسبق صاحبها بنورها لأنها خرجت من موضع صادق. ورب كلمة قلتها لمكسور كانت عند الله أثقل من خطابٍ أعجب به الآلاف، ورب امتناع عن ظلمٍ لم يعرفه الناس كان أرفع من صدقاتٍ أريد بها الثناء.

والفعل ﴿قَدَّمْتُ﴾ يصور العمل كشيء يسبق صاحبه إلى غده؛ فأياملك لا تحتفي حين تنقضي، بل تتحول إلى رسلٍ تنتظر في المستقبل. الصلاة التي أخلصت فيها لم تذهب، والدمعة التي أخفيها لم تجف في ميزان الله، والظلم الذي نسيتَه شخصيته ربما بقي مكتوباً، والكلمة التي ألقيتها بلا مبالاة قد سبقتك إلى صحيفة لا تنسى. نحن نعيش الزمن كأنه يمضي بعيداً عنا، لكن القرآن يقول إننا نرسله أمامنا؛ كل يومٍ يفصل من العمر لا يسقط في العدم، بل يأخذ معه جزءاً منا ويضعه في الموعد الآتي.

ثم يسمى يوم القيامة ﴿عَدُّ﴾، وما أقرب هذا التعبير وما أهوله! الغد في شعور الإنسان هو أقرب المستقبل، شيء يكاد يطل من وراء الليل؛ فكأن الآخرة ليست ذلك البعيد الذي تسمح النفس لنفسها أن تؤجل الاستعداد له، بل غدٌ يتقدم نحونا ونحن نتقدم إليه. مهما طال العمر فهو يوم أو بعض يوم إذا انطوى، وكل ما يبدو الآن ممتداً سيصير عند الموت ذكرى قصيرة. وقد نام أناس يخططون لغدهم الأرضي، فلم يستيقظوا إلا على غد الآخرة، وانتهى بينهم وبين الدنيا كل وقت للعمل.

وتكبير ﴿عَدُّ﴾ يزيده جلالاً، كأن حقيقته أوسع من أن تحيط بها العبارة؛ غدٌ لا يشبه سائر الأيام، تنكشف فيه السرائر، وتسقط الحصون، ويقف المال عند حد القبر، وتعود الألقاب أصواتاً بلا سلطان، ولا يبقى للإنسان إلا ما قدم. هناك يعرف أن الأشياء التي شغلته لم تكن تستحق كل ذلك القلق، وأن الخصومات التي أظلم بها قلبه كانت أقصر من أن يضحي من أجلها بسلامه، وأن لحظة صدقٍ مع الله كانت أثمن من أعوامٍ كاملة عاشها لعيون الناس.

ثم يتكرر الأمر: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. جاءت التقوى قبل النظر وجاءت بعده، فكأنها تحيط بالحاسبة من طرفيها. اتقوا الله حتى تملكوا شجاعة النظر، واتقوه بعد النظر حتى تتحول المعرفة إلى إصلاح. فقد يحاسب الإنسان نفسه محاسبةً مشوهة، فيدفعه اكتشاف تقصيره إلى اليأس، أو يحول المحاسبة إلى جلد للذات لا يثر عملاً؛ أما التقوى فتضعه بين الخوف والرجاء. يرى ذنبه فلا يستهين به، ويرى رحمة ربه فلا يقنط، ثم يقوم ليصلح ما يستطيع. المحاسبة القرآنية ليست محكمةً لإعدام النفس، بل ورشةً لإنقاذها قبل فوات الأوان.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ والخير هو العالم ببواطن الأشياء ودقائقها، لا تخفى عليه الطبقات المستورة وراء الفعل. يعلم ماذا عملت، ولماذا عملته، وما الخاطر الذي سبق الحركة، وما النية التي تغيرت في أثنائها، وما الحظ الذي طلبته لنفسك وأخفيته تحت ألفاظ الإخلاص. قد تتدع الناس بظاهر منمق، وقد تتدع نفسك بتكرار مبرراتها، لكنك لا تتدع الخير. وهذه الحقيقة مرعبة لمن اتخذ الأقنعة حياة، ومطمئنة لمن ظلمت نيته أو أسىء فهمه؛ إذ يكفي أن الله يعرف الحقيقة التي عجز عن بيانها.

وخبرة الله لا تقتصر على السيئات التي نحاول سترها، بل تشمل الخير الخفي الذي لا نملك إظهاره. يعلم جهاد القلب حين يقاوم خاطراً لم يتحول إلى فعل، ويعلم صبرك على ألم لم تحدث به أحداً، ويعلم أنك تركت كلمة قاسية مع قدرتك عليها، ويعلم ما في العطاء القليل من صدق ربما لم يوجد في العطاء الكثير. فلا تظن أن العمل يضيع لأنه لم يصفق له الناس؛ فالخير لا يحتاج إلى إعلانك ليعلم، ولا إلى شهادة الخلق ليثيب.

وهذه الآية تقيم الإنسان في نقطة التقاء ثلاثة أزمنة: ماضٍ قدّم فيه الأعمال، وحاضر ينظر فيه ويحاسب، وغد يلتقي فيه ما قدّم. وما دام حاضر المحاسبة قائماً، فالماضي ليس سجناً مغلقاً؛ تستطيع التوبة أن تغير أثره، وتستطيع الإصلاح أن يلحق ما فسد، وتستطيع الحسنة أن تحو السيئة بإذن الله. لكن الخطر أن يمر الحاضر بلا نظر، حتى يتحول هو أيضاً إلى ماضٍ يحتاج إلى حسرة جديدة. فالوقت ليس فقط ما نستهلكه، بل هو المادة التي نبني منها مصيرنا، وكل ساعة لا تُستعاد تضع حجراً في بيت الغد.

فانظر، أيها القلب، ماذا قدمت، لا لتعالى بما أحسنت، بل لتشكر الله الذي وفقك، ولا لتنهار أمام ما أسأت، بل لتعود إلى الباب المفتوح. انظر إلى صلاتك: هل نقلتك إلى الله أم بقيت عادة للجوارح؟ وإلى علمك: هل أورتك خشية أم صار حصناً للكبر؟ وإلى كلماتك: كم قلباً أحييت، وكم قلباً جرحت؟ وإلى مالك: أين جعلك خادماً للخير، وأين جعلك خادماً له؟ وإلى خصوماتك: هل طلبت فيها الحق أم طلبت انتصار صورتك؟ ثم اجمع هذا كله في دعاء المضطر: ربّ، لا تجعل غدي حصاد غفلي، واجعل بقية يومي إصلاحاً لما قدمت، وهب لي من تقواك نوراً أرى به الطريق قبل أن لا يبقى في الطريق موضع لخطوة.

الآية التاسعة عشرة: حين ينسى الإنسان ربّه فيضيع منه عنوان نفسه

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

بعد أن دعت الآية السابقة المؤمن إلى النظر فيما قدّم لغيره، تحذره هذه الآية من المرض الذي يعطل المحاسبة من أصلها: نسيان الله. وليس نسيان الله مجرد غياب اسمه عن اللسان، فقد يكثر الإنسان من ذكر الله لفظاً، ثم يعيش في اختياراته كأن الله لا يراه، ولا يحاسبه، ولا يملك أمره؛ وإنما النسيان هنا غياب الحقيقة الإلهية عن مركز الوعي، بحيث تتحرك النفس في العالم مستقلة في شعورها، تستمد موازينها من الناس، وتستقبل النعمة بلا شكر، وتواجه البلاء بلا رجوع، وتخطط لغيرها كأن الموت لا يقطع الخطط، وكأن الحياة أرض بلا مالك. إن أخطر الغفلة ليست أن تنكر الله بفكرك، بل أن تعطل حضوره في حياتك، فيبقى الإيمان عبارة في هامش الوعي، بينما تنولى الشهوة والخوف والمصلحة كتابة المتن كله.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾؛ لم يقل: لا تنسوا الله فقط، بل حذر المؤمنين من أن يصيروا «كالذين» استقر النسيان فيهم حتى تحول إلى نمط وجود وهوية. فقد تمر على القلب غفلة ثم يوقظه الأذان أو القرآن أو الألم أو نعمة مفاجئة، فيعود سريعاً إلى ربه، وهذه من طبيعة البشر؛ لكن الخطر أن تراكم الغفلات حتى يصبح الرجوع غربياً، وأن يعتاد القلب المسافة حتى لا يشعر ببعده، وأن تتحول المعصية التي كانت توجهه إلى مشهد مألوف لا يحرك فيه سؤالا. عندئذ لا يكون النسيان حادثاً عابرة، بل بيئة داخلية يعيش فيها الإنسان، ويعيد تفسير كل شيء بما يحفظها.

والله سبحانه لا ينسى عبادته، تعالى عن النقص والغفلة؛ فنسيانهم له هو تركهم أمره وإهمالهم حقه، وانصراف قلوبهم عنه إلى ما سواه. قد يتذكرونه عند ضيق يهدد مصالحهم، ثم إذا كشف الضر عادوا إلى ما كانوا فيه، كأنهم لا يريدون الله لذاته، وإنما يريدون منه أن يصلح لهم الدنيا ثم ينسحب من طريق شهواتهم. هذا ليس ذكراً كاملاً، بل استعمال للدعاء عند الحاجة. أما الذاكر حقاً فهو من يحضر الله في وعيه عند المنع كما يحضره عند العطاء، وعند القوة كما يحضره عند الضعف، وفي السوق كما في المسجد، وفي الخصومة كما في الصفاء؛ لأن رب المسجد هو رب الطريق والمال والكلمة والسريرة.

ثم تأتي الفاء التي تحمل جزاءً من جنس العمل: ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾. لما تركوا معرفة الله وذكره، عوقبوا بأن ضاعت منهم المعرفة الحقيقية بأنفسهم. وهذه من أعمق المفارقات القرآنية؛ فالإنسان قد يظن أنه حين يبتعد عن الله يتفرغ لنفسه، ويتحرر من التكليف ليحقق ذاته، فإذا به يفقد الذات التي أراد تحقيقها. يظل مشغولاً بجسده وصورته ومصالحه ولذاته، وربما لم يتحدث عن شيء قدر حديثه عن نفسه، لكنه لا يعرفها في حقيقتها: لا يعرف من أين جاءت، ولا لماذا منحت العمر، ولا إلى أين تمضي، ولا ما الذي يزكيها أو يهلكها. يعرف رغباتها

العاجلة ولا يعرف حاجتها الكبرى، يسمع صرخات شهواتها ولا يسمع أنين فطرتها، ويحفظ تفاصيل صورتها في عيون الناس وينسى صورتها في ميزان الله.

إن معرفة النفس لا تبدأ من التحديق فيها وحدها، لأن النفس إذا جعلت نفسها مرآتها خدعتها؛ تزين لها غرورها على أنه كرامة، ويخلها على أنه حذر، وجنبا على أنه حكمة، وحسدها على أنه غيرة على الحق. إنما تعرف النفس نفسها حين تقف في نور الله، فترى حدودها أمام كماله، وفقرها أمام غناه، وضعفها أمام قدرته، وتقصيرها أمام نعمه. فمن عرف الله عرف أنه عبد، وهذه المعرفة الواحدة تعيد ترتيب كيانك كله؛ يعرف أنه لم يخلق نفسه، فلا يتكبر؛ وأنه ليس مهماً، فلا يعيب؛ وأنه مكرم بالتكليف، فلا يحتقر وجوده؛ وأنه راجع إلى ربه، فلا يبدد العمر كأنه لا ينتهي.

﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي أنساهم مصالحها الحقيقية، فلم يقدموا لها ما ينجيها. وقد يظن الإنسان أنه يخدم نفسه حين يجمع لها المال، ويحجي لها المكانة، ويحقق لها كل شهوة، بينما يكون في الحقيقة قد أهملها إهمالاً قاتلاً؛ لأنه زين خارجها وترك داخلها ينهار، وأطعم جسدها وأجاع روحها، وصان صورتها عند الناس وترك منزلتها عند الله تتصدع. وما أشد مأساة من ينفق عمره كله في خدمة شيء سيفارقه عند الموت، ولا يمنح قلبه ساعة صادقة لما سيبقى معه بعد الموت.

ومن نسي نفسه نسي قدرها أيضاً؛ فقد خلقها الله لتعرفه وتعبده، وأودع فيها قابلية للترقي بالإيمان حتى تبلغ رضوانه، فإذا اختزل الإنسان نفسه في مستهلك يبحث عن المزيد، أو جسد يطارد اللذة، أو اسم يريد أن يعلو على الأسماء، فقد أهانها وهو يظن أنه يكرمها. إن أعظم إهانة للنفس ليست أن تحرمها بعض ما تشتهي، بل أن تقنعها بأنها لا تصلح إلا للشهوة، وأنها لا تحمل سراً أرفع من الطين. أما العبادة فلا تلغي إنسانية الإنسان، بل تستخرجها من أسر الأهواء؛ تجعله قادراً على أن يقول لرغبته: لست أنت سيدي، وأن يقول لخوفه: لن تحدد لي الحق، وأن يقول للمدح الناس وذمهم: قيمتي لا تصنع في أفواهكم.

وقد يكون إنساء النفس أن يغفل الإنسان عن عيوبه، فيرى أخطاء الآخرين واضحة كأنها مكتوبة على الجدران، ولا يرى خطيئته وهي تسكن قلبه. يطوف حول عورات الناس، ويجمع الأخبار عن سقوطهم، ويشعر كلها أذاناً أحداً أنه قد ارتفع درجة، بينما تبقى نفسه مهجورة لا يدخل إليها مصباح المحاسبة. وربما استعمل الدعوة إلى الله ستاراً للهروب من إصلاح ذاته؛ يتحدث عن فساد العالم كله، لكنه لا يسأل عن ظلم في بيته، أو كبر في صدره، أو كلمة أفسدت قلباً قريباً منه. إن الاشتغال بعيوب الآخرين قد يكون نوعاً خفياً من نسيان النفس، لأن القلب يجد في محاكمتهم راحة من محاكمة ذاته.

وقد يظهر إنساء النفس في صورة أخرى: أن ينسى الإنسان طاقاته التي وهبها الله، ويستسلم لصورة صنعها له الفشل أو صنعها عنه الناس. يظن أن توبته مستحيلة، وأن ماضيه هو تعريفه الأخير، وأنه لا يستطيع أن ينهض لأن أحداً أقنعه بأنه لا يستحق النهوض. وهذا أيضاً بعد عن معرفة الله؛ فلو عرف ربه الغفور لعلم أن الذنب ليس أكبر من المغفرة لمن تاب، ولو عرفه القادر لعلم أن القلب الذي يبس أعواماً يستطيع أن يحييه الله بقطرة هداية، ولو عرفه الكريم لما قاس مستقبه كله على فقر لحظته الراهنة. ذكر الله لا يكشف ضعف النفس وحده، بل يكشف كذلك الأبواب التي يفتحها الله لها.

ثم يصدر الحكم: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. والفسق خروج عن حدود الطاعة وعن الطريق الذي يوافق حقيقة الفطرة. لقد خرجوا من ذكر الله، فخرجوا من ذواتهم، ثم خرجوا عن الغاية التي خلّقوا لها. وما أعجب أن يظن الفاسق أنه يحقق استقلاله، بينما هو في الحقيقة يتشظى بعيداً عن مركزه؛ ككوكب يتوهم أن التحرر من مداره اتساع، ولا يدري أن المدار هو الذي يحفظه من الضياع في الفراغ.

في هذه الآية يتضح أن الذكر ليس زينة روحية تضاف إلى حياة مكتملة، بل هو الشرط الذي يحفظ للحياة معناها. حين تذكر الله تعرف أين تقف، وما قيمة ما تفعل، وأي الأشياء ينبغي أن تكبر في عينك وأياها ينبغي أن تصغر. وحين تنساه تضطرب المقاييس: تعظم كلمة بشر حتى تهدمك، وتصغر الآخرة حتى لا تحركك، وتضخم خسارة مال كأنها نهاية الوجود، وتستصغر خسارة قلبك مع أنها الخسارة التي لا يعوضها شيء. فالذكر يعيد الأبحار إلى حقيقتها؛ يجعل الله أكبر في وعيك، فيعود كل ما سواه إلى حدوده.

ولذلك فإن الطريق إلى النفس يمر بالله، والطريق إلى سلامها يبدأ من سجودها. كلما قلت: «سبحان الله»، مستحضراً تنزهه وكأله، تحررت من صورة ناقصة صنعتها عنه؛ وكلما قلت: «الحمد لله»، رأيت نفسك محاطةً بالنعمة بدل أن تكون سجيناً ما فقدت؛ وكلما قلت: «الله أكبر»، سقط صنمٌ صغير من أصنام الخوف والطمع. وهكذا لا يكون الذكر تذكراً منفصلاً عن الواقع، بل عمليةً دائمةً تجمع شتات النفس وردها إلى موطنها.

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

بعد التحذير من نسيان الله والنفس، تضع الآية الحقيقة في عبارة فاصلة لا تسمح للضباب الأخلاقي أن يبتلع الحدود: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾. قد تختلط المظاهر في الدنيا؛ يسكن المؤمن والكافر مدينة واحدة، ويتعامل الصادق والكاذب في سوق واحد، وقد يتقدم صاحب الباطل في متاع الدنيا ويتأخر صاحب الحق، حتى يخيل للناظر أن القيم لا أثر لها في المصائر. لكن الآخرة تكشف الفرق الذي حجبته الامتحان؛ فليست الطرق كلها مؤدية إلى غاية واحدة، وليست الخيارات الأخلاقية ألوأناً متساوية في لوحة لا حساب وراءها. هناك حق وباطل، وذكر ونسيان، وصدق ونفاق، وإيثار وشح، وكل طريق يصنع صاحبه قبل أن يبلغه نهايته.

والقرآن لا يقول فقط: لا تستوي النار والجنة، فهذا ظاهر، وإنما يقول: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾؛ فيربط المصير بأصحابه، فكان الصفة الطويلة للأعمال أنشأت صلة بين الإنسان ومنزلته. صاحب الجنة لم يصبح صاحبها لحظة دخولها فقط، بل بدأ يصاحب طريقها في الدنيا: يصاحب التوبة إذا زل، والصدق إذا فتن، والرحمة إذا قدر، والتقوى إذا خلا. وصاحب النار - ممن ختم له بالكفر والعياذ بالله - كان يصاحب أسبابها، ويقيم عليها حتى صارت العاقبة امتداداً لما اختاره. إن الدار الآخرة لا تفرض على الإنسان غريبة عن باطنه، بل تظهر فيها حقائق الاتجاه الذي عاش عليه.

وقد يضعف بصر الإنسان أمام فتنة الحاضر، فيرى المترف في باطله فيقول: ما الفرق بينه وبين المؤمن الذي أثقله البلاء؟ والآية تجيبه بأنك تقارن مقطعاً صغيراً من الطريق ولا ترى نهايته. لو رأيت البدرتين في التراب لما أدركت بعينك الفرق بين شجرة مثمرة ونبته سامة، لكن الزمن سيخرج المكنون. كذلك تعمل الأعمال في أرض الروح؛ قد لا يظهر أثرها فوراً، لكن الصدق يبني في القلب قوة ونوراً، والكذب يحفر فيه خوفاً وظلمة، والطاعة تجمع النفس، والمعصية تشتتها. ثم يأتي يوم القيامة فيكتمل الظهور، ويرى ما كان يخو وراء ستر الدنيا.

ولا تعني الآية أن كل من انتسب بلسانه إلى أهل الإيمان قد ضمن الجنة، ولا أنها تمنح المؤمن حق الغرور بمصيره؛ فهي جاءت بعد أمر التقوى والمحاسبة، لا بعد شهادة مطلقة لأصحاب الدعاوى. الانتماء الحقيقي يظهر في الاتجاه والعمل والخاتمة التي نسأل الله حسننها. وقد يرتكب المؤمن الذنب، لكنه لا يصادقه ولا يجعله وطناً؛ يوجهه، ويعود منه، ويطلب من الله أن يظهره. أما الخطر فهو أن يقلب الإنسان الموازين، فيسمي النار جنةً، ويعد القيود حريةً، ويقنع نفسه بأن البعد عن الله حياة، حتى يفقد القدرة على رؤية الطريق.

ثم تقرر الآية النتيجة دون تردد: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾. وجاء ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ ليحصر الفوز الحقيقي فيهم، وكأن ما يسمى فوزاً في الدنيا لا يستحق الاسم إذا انتهى بصاحبه إلى الخسران. قد يفوز إنسان بمنصب ويخسر عدله، أو يفوز بمال ويخسر طمأنينته، أو ينتصر في خصومة ويخسر أخاه، أو يحفظ صورته أمام الناس ويخسر صدقه أمام الله؛ فتبدو له لحظته نجاحاً، لكنها في ميزان الغد جزء من الهزيمة. الفوز ليس أن تحصل على كل ما تريد، بل أن تريد ما ينبغيك، وأن تصل إلى الله بقلب لم تبعه في الطريق.

وأصحاب الجنة هم الفائزون لأنهم نجوا من النار أولاً؛ فلا يكتمل معنى الفوز بنيل المحبوب إلا مع السلامة من المرهوب. ثم نالوا داراً لا يهدد نعيمها زوال، ولا يخالط أمنها خوف، ولا تعبر صحتها علة، ولا يفسد اجتماعها فراق. كل أفراح الدنيا يمر من داخلها ظل النهاية؛ تبسم وأنت تعلم أن اللحظة ستنقضي، وتحب وأنت تخشى الفقد، وتسكن البيت وأنت تعرف أن يوماً سيخرجك منه. أما الجنة فهي النعمة التي نزع منها خنجر الزوال، ولذلك كانت الفوز الذي لا يعقبه خسران.

لكن أعظم ما في الجنة ليس أنهارها وثمارها وقصورها، على جلالها، بل رضوان الله والقرب منه؛ إذ لا يكتمل نعيم القلب بأشياء خلقها الله بعيداً عن معرفة الله. إن الإنسان الذي أضناه البحث في الدنيا كان يطلب، من وراء صور طلبه كلها، أمناً لا ينقطع، وجمالاً لا يذبل، وحباً لا يخون، وحياة لا يفسدها الموت؛ وهذه المطالب لا تجتمع كاملة إلا في الدار التي يرضى الله فيها عن عباده. هنالك يفهم القلب لماذا كانت الطاعات، على مشقتها العارضة، طرقاً إلى الحرية، ولماذا كانت الشهوات المحرمة، على لذتها العاجلة، أبواباً إلى الضيق.

وفي الآية دعوة إلى إعادة تعريف النجاح قبل أن يسرق العمر تعريف المجتمع له. إذا قال الناس: النجاح من جمع أكثر، فاسأل: ماذا بقي في قلبه؟ وإذا قالوا: الفائز من غلب خصمه، فاسأل: هل غلب هواه؟ وإذا قالوا: العظيم من عرفه الملايين، فاسأل: هل عرفه الله بالإخلاص؟ ليست هذه الأسئلة دعوة إلى ترك عمارة الدنيا، بل إلى ألا تعمّر الدنيا على أنقاض الآخرة. يستطيع المؤمن أن ينجح في عمله، ويبدع في علمه، ويوسع رزقه، ولكنه يبقى الفوز الأكبر أمام عينيه، فلا يشتري نجاحاً مؤقتاً بخسارة أبدية.

الآية الحادية والعشرون: الجبل الذي يخشع، والقلب الذي يسمع ولا ينكسر

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

بعد أن فرغت السورة من عرض ثماذج القلوب: قلب قُذِف فيه الرعب، وقلب امتلأ بالحب والإيثار، وقلب حمل الغل، وقلب فرقه النفاق، وقلب نسي الله فأنساه نفسه؛ تَقَفَّ الآن أمام القرآن ذاته، وتعرض أثره المفترض في أشد ما تراه العين صلابة: الجبل. ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾؛ هذا القرآن الذي بين يديك، لا كتاباً بعيداً ولا وحياً آخر، بل هذه الكلمات التي قد تمر عليها العين كل يوم، وتحفظها الذاكرة، وترددها الشفاه. لو أن الجبل، بضخامته وصلابته وثقله ورسوخه، كان محلاً لتلقي هذا الخطاب على وجه الإدراك الذي يليق بالمثل، لما بقي على حاله.

إن الجبل في الحس رمز الثبات الذي لا يتزعزع؛ تمر به الرياح فلا تمحله، وتحدّر عنه السيول ويبقى، وتنعاقب عليه الأجيال وهو قائم يرى رحيلها. لكن القرآن أثقل معنى من صلابة الجبل؛ لأنه يحمل جلال المتكلم سبحانه، وخبر الوجود، وميزان الحق، ووعد الجنة، ووعد النار، وأمر العبودية، وكشف المصير. ولو وعى الجبل ما في هذا الخطاب من أسماء الله وصفاته، ومن قرب الحساب، ومن ثقل الأمانة، لانقلب رسوه خشوعاً، ولتصدعت صخوره من الخشية. فما الذي يحدث إذن لقلب الإنسان حين يتلقى القرآن ويبقى كما كان؟

﴿لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. يبدأ الأثر بالخشوع وينتهي بالتصدع؛ فالخشوع انحناء الداخل لجلال ما أدرك، والتصدع ظهور ذلك الأثر في البنية نفسها. وليس خشوع الجبل خوفاً غامضاً من قوة مجهولة، بل ﴿مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾؛ والخشية خوفٌ ممزوج بالمعرفة، فكما عرف القلب من عظمة الله ازداد تواضعاً وانكساراً. ولهذا يكون العلماء بالله أخشاه له، لا لأنهم يسيئون الظن برحمته، بل لأنهم أدركوا من جلاله ما بدد فيهم وهم الاستقلال والأمن الكاذب.

والتصدع ليس فناءً بلا معنى، بل انفتاح الصلابة تحت ضغط الحقيقة؛ كأن القرآن يشق القشرة التي توهمت الاكتفاء، ليخرج منها الاعتراف والدمع والتوبة. والقلب يحتاج أحياناً إلى تصدع ينقذه؛ فالإنسان قد يبني حول نفسه طبقات من القسوة كي لا يتألم، ثم تتحول الحماية إلى سجن يمنعه من الرحمة والاعتراف. يأتي القرآن فلا يهدف إلى تحطيم الإنسان، بل إلى تصديع سجنه؛ يكسر كبره كي يحرر فطرته، ويهدم عذره كي يفتح له باب التوبة، وينزع عنه وهم القوة كي يعيده إلى القوة الحقيقية التي يجدها في الافتقار إلى الله.

فلماذا يقرأ الإنسان الآيات التي لو نزلت على جبل لخشع، ثم يغلق المصحف ويعود إلى قسوته كما هي؟ لأن القرآن قد يصل إلى الأذن ولا ينزل على القلب. هناك فرق بين أن تمر الكلمات

بذاكرتك، وأن تنزل فيك نزول الوحي المربي؛ الأول يزيدك معلومات، والثاني يعيد تكوينك. قد تحفظ آية في تحريم الظلم، ثم تضع بينها وبين ظلمك حواجز من التأويل، وتقرأ عن الآخرة، لكنك تدفعها إلى زاوية بعيدة من الشعور، وتردد أسماء الله، بينما قلبك معلق بأسماء أصحاب القوة. ليست المشكلة في ضعف نور القرآن، بل في كثافة الحجب التي نضعها بينه وبين مواضع المرض.

وقد يقرأ المرء القرآن باحثاً فيه عن أخطاء الآخرين، فيجعل كل وعيد سهماً يوجهه إلى خصمه، وكل وصف للنفاق مرآة يضعها أمام مخالفه، ولا يسمح للآية أن تستدير نحوه لحظة. وهكذا يخرج من التلاوة وقد ازدادت خصومته ولم تزد خشيته. أما القلب الحي فيسمع القرآن كأنه المخاطب الأول؛ فإذا سمع عن الشح بحث عن شحه، وإذا سمع عن الغل فقت صدره، وإذا سمع: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ﴾ وقف بنفسه أمام الميزان، ولم يرسل نفس غيره. القرآن لا ينزل لينحك سلاحاً تتفوق به على الناس، بل نوراً ترى به نفسك وطريقك إلى الله.

ولا يعني التأثير بالقرآن مجرد الدمع؛ فالدمع نعمة إذا صدق، لكنه قد يجيء من جمال الصوت ثم يحيف قبل أن يصل إلى الإرادة. الخشوع الذي تصوره الآية يصدع البنية القديمة، فيترك أثراً بعد انتهاء التلاوة: حراماً يترك، وحقاً يرد، وكبراً ينكسر، وعلاقة تصلح، ومالاً يخرج من أسر الشح، وقراراً يتغير لأن الله قال. إن القرآن لم ينزل لينزج مجالسنا فقط، بل ليعيد بناء العالم من خلال الإنسان؛ وإذا لم ينتقل من النعمة إلى الموقف بقيت بين التلاوة والاستجابة مسافة ينبغي أن تُبكي.

ومع ذلك فإن قسوة القلب ليست قدراً نهائياً؛ فالذي أنزل القرآن يعلم كيف يجيء به الأرض الميتة في الصدور. قد يمر الإنسان بالآية أعواماً ثم تفتح له في يومٍ باباً لم يره، لأن لحظة الصدق قد جاءت، وقد تسمع القلب كلمةً واحدةً فينكسر جدار بناه عقوداً. فلا تيأس من طول غفلتك، لكن لا تطمئن إليها؛ عد إلى القرآن لا بعدد الصفحات وحده، بل بسؤال الافتقار: ماذا تريد مني هذه الآية؟ أي وهم جاءت لتسقطه؟ وأي اسم من أسماء الله تريد أن تعرفني به؟ وما الشيء الذي ينبغي ألا أبقى بعد سماعها كما كنت قبله؟

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾؛ فالمثل جسرٌ ينقل المعنى الخفي إلى صورةٍ تراها المخيلة. نحن لا نستطيع أن نزن بأيدينا ثقل الوحي المعنوي، فيضع الله أمامنا جبلاً يتصدع حتى ندرك بعض ما ينبغي أن يحدث في القلب. والأمثال ليست زينةً بيانية، بل أدوات إيقاظ؛ تهز المألوف، وتجعل الإنسان يرى حاله من خارجها. ماذا لو كان قلبك أقسى من الجبل؟ الجبل لو تلقى لخشع، وأنت تتلقى كل يوم؛ الجبل لا يحمل هوى يجادله، ولا مصلحة تحرف له المعنى، أما أنت فقد منحك الله عقلاً وحرية، ولذلك صار خشوعك اختياراً وشرفاً ومسؤولية.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، هنا تعود السورة إلى العقل بعد حديث الخشوع، فتجمع مرةً أخرى بين القلب والفكر. ليس التدبر انفعالاً بلا بصيرة، ولا التفكير برودةً عقليةً بعيدةً عن الوجدان؛ فالقرآن يريد عقلاً يخشع وقلباً يفكر. التفكير هو أن تتجاوز سطح الصورة إلى دلالتها: إذا كان الجبل يتصدع، فما حقيقة هذا القرآن؟ وإذا كان القرآن بهذا الثقل، فما حقيقة المتكلم به؟ وإذا كان الله يخاطبني، فكيف أسمح لكلام البشر أن يكون أبلغ أثراً في قراراتي من كلامه؟

إن التفكير يوقظ الخشية، والخشية تفتح للفكر أبواباً لا يفتحها الكبر؛ لأن المتعالي لا يرى إلا ما يثبت صورته، أما الخاشع فيقبل أن تهدم الحقيقة بعض أفكاره كي تعيد بناءه على بصيرة. ولهذا كان أول طريق الانتفاع بالقرآن أن تدخل عليه لا بوصفك حاكماً يختبره، بل عبداً يطلب أن يهدي به. لا تلغي عقلك، وإنما تحرره من عبودية الهوى حتى يؤدي وظيفته في حضرة الوحي.

وتقف السورة عند هذا الجبل المتصدع لحظةً قبل أن تفتح أبواب الأسماء الحسنى؛ فكأن القلب لا يستطيع دخول ذلك المقام بجدران القديمة. لا بد أن يخشع أولاً، وأن يتصدع فيه غرور الاستغناء، حتى يستقبل قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ استقبال المحتاج الذي عرف أن حصونه كلها لا تغنيه، وأن نجاته ليست في مزيدٍ من الجدران، بل في معرفة رب الجبال والقلوب والعالمين.

الآية الثانية والعشرون: حين تراجع الأشياء كلها ولا يبقى في القلب إلا الله

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

بعد أن وقفت السورة بالقلب أمام جبل خاشع متصدع من خشية الله، تبدأ الآن في الكشف عن مصدر ذلك الخشوع، فتفتح خاتمها بالكلمة التي تراجع أمامها الأسماء كلها: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾. كأن كل ما سبق من إخراج وحشر، وانهيار حصون، وقذف رعب، وقسمة أموال، وكشف نفاق، ومدح إثارة، وتحذير من الغفلة، لم يكن إلا طريقاً طويلاً يقود إلى هذه المعرفة: هو الله. فما سقطت الحصون إلا ليظهر معنى العزيز، وما انكشفت التدابير إلا ليظهر معنى الحكيم، وما فُضحت السرائر إلا ليظهر علمه بالغيب والشهادة، وما دُعي المذنبون إلى الرجوع إلا لأن أبواب الرحمن الرحيم مفتوحة. إن أحداث السورة ليست منفصلةً عن أسمائه، بل هي آثار معرفتها في التاريخ والنفس؛ فالوجود كله كتاب، والأسماء الحسنى مفاتيح قراءته.

﴿هُوَ اللَّهُ﴾؛ ليست الجملة تعريفاً باسم مجهول، بل ردُّ للقلب من التشتت إلى الواحد. لقد ظل الإنسان طوال السورة موزعاً بين حصن يخشاه، ومال يريده، وحليف يثق به، وغد ينساه، ونفس يخشى عليها؛ ثم تأتي كلمة ﴿هُوَ﴾ فتجمع الجهات كلها في جهة، وترد الأسباب إلى مسببها، والوقائع إلى مديرها، والأحكام إلى مشرعها، والمصائر إلى مالكها. هو الذي أخرج، وهو الذي أفاء، وهو الذي أمر بالتقوى، وهو الذي يعلم ما قَدِم للغد، وهو الذي لو أنزل كلامه على جبل لتصدع. فإذا استقرت هذه الـ﴿هُوَ﴾ في القلب لم تعد الحياة شظايا مبعثرة، بل صارت أقداراً تجري في ملك واحد، وتديراً يصدر عن حكمة واحدة، ورحلة تنتهي إلى لقاء الواحد الأحد.

والاسم العظيم ﴿الله﴾ هو الاسم الجامع لمعاني الكمال والجلال والجمال؛ تتوجه إليه العبادة كلها، وتفتقر إليه الخلائق كلها، ولا يحاط بحقيقته علماً، ولا يشبهه شيء من خلقه. ليس الله فكرة يصنعها الإنسان ليطمئن، ولا صورة تكبر في خياله، ولا قوة مبهمّة تسري في الأشياء، تعالى الله عن ذلك؛ بل هو الرب الحق، المتصف بصفات الكمال، المنزه عن مماثلة المخلوقين، الخالق وما سواه مخلوق، والغني وما سواه فقير، والقائم بنفسه وكل شيء قائم بإقامته. وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ما يحده الوهم أو يشبهه بخلقه؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ولا تحيط العقول بكيفية ذاته وصفاته، وإنما تعرفه بما عرّف به نفسه في وحيه، معرفة تورث المحبة والخشية والعبودية.

ثم تأتي كلمة التوحيد: ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. ليست «لا إله إلا الله» مجرد نفى لتماثيل الحجر، بل تحرير شامل للقلب من كل ما ينافي حق الله حق العبادة والطاعة المطلقة والتوكل والرجاء الأعلى. قد تهدم الأصنام من الساحات، وتظل في الصدور أصنامٌ لا تراها العين: صنم المال الذي يبيع الإنسان لأجله مبادئه، وصنم الجماعة التي يرد الحق إذا جاء من خارجها، وصنم

الذات التي لا تعترف بخطئها، وصنم الناس الذين يخشى رأيهم أكثر من مراقبة الله، وصنم السبب الذي يراه مانعاً له من القدر. وكل «لا إله إلا الله» صادقة تمر على هذه الأصنام فتكسر منها بقدر حضورها في القلب.

التوحيد أن لا يكون في أعماقك محبوبٌ لذاته كالله، ولا مرجوٌ رجاء العبادة سواه، ولا مخشيٌ خشية تجعلك تعصيه من أجل غيره. تحب الخلق، لكن محبتك لهم لا تدفعك إلى خيانة الحق؛ وترجو الأسباب، لكنك لا تنسب إليها استقلالاً؛ وتطيع من له حق الطاعة، لكن طاعته مقيدة بطاعة الله؛ وتخاف الضرر، لكنك لا تمنح الخوف سلطةً على ضميرك. وهكذا لا يقطع التوحيد صلاتك بالعالم، بل يحررها من العبودية؛ فتحب الناس من غير أن تجعل سعادتك رهينةً بأيديهم، وتستعمل المال من غير أن يسكن عرشه قلبك، وتسعى في الأسباب من غير أن تنهار إذا أغلق أحدها، لأن خزان المسبب لم تغلق.

﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ والغيب هو ما غاب عن مدارك الخلق، والشهادة ما حضر وظهر لهم، وكلاهما في علم الله سواء؛ لا يزيد ظهوره شيئاً في علمه، ولا يحجبه غيابه. ما نسميه غيباً إنما هو غيب بالنسبة إلينا، أما الله فلا تخفى عليه خافية: يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم السرائر التي لم تتحول إلى كلمات، والطرق التي لم نسلكها، والنتائج التي لم تظهر، والآهات التي عجز أصحابها عن شرحها. لا يحتاج علمه إلى تجربة أو استنتاج، ولا يسبقه جهل ثم يلحقه إدراك، تعالى سبحانه؛ فعلمه كامل أزلي محيط، لا تسقط من إحاطته ذرة في ظلمة الأرض ولا خاطر في أعماق القلوب.

وما أرهق الإنسان الغيب؛ فهو يريد أن يعرف ما سيأتي حتى يطمئن، ويظن أن الأمن في امتلاك تفاصيل المستقبل. لكن لو كشف له الغد كله ربما عجز عن حمله، وربما أفسد علمه به حاضره. ومن رحمة الله أن استأثر بعلم الغيب، وأعطاك من النور ما يكفي لخطوتك، ثم طلب منك أن تثق به في بقية الطريق. أنت لا تعرف ما ينتظرك خلف الباب، لكنك تعرف أن الله يعلمه؛ ولا تعرف لماذا تأخر الأمر، لكنك تعرف أن الحكيم لم يرغب عنه؛ ولا تعرف أين ينمو أثر دعائك، لكنك تعرف أن الخبير سمعه قبل أن تصوغه شفتاك. هذه المعرفة لا تمنحك خريطة الغيب، لكنها تمنحك ما هو أثمن: قلباً يسير مطمئناً مع رب الغيب.

وهو ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، فلا تستطيع الصورة الظاهرة أن تخدعه. شهد المنافقون بألسنتهم أنهم سينصرون، لكن الله علم الغيب المستور في قلوبهم، فشهد بكذبهم قبل أن تكشفه الوقائع. وقدم المهاجرون أموالهم وديارهم، فعلم الله أن مقصدهم فضله ورضوانه، فسامهم الصادقين. وقد أثر الأنصار إخوانهم، فرأى الله ما وراء اليد الممتدة من صدر لا يجد حرازةً ولا غلاً. وهكذا تتمايز الأعمال لا بصورها وحدها، بل بالسرائر التي يعلمها علم الغيب والشهادة.

وهذا الاسم يربي في القلب حياة لا يحتاج إلى عيون البشر؛ فإذا أغلقت الأبواب فأنت لم تخرج من الشهادة الإلهية، وإذا أخفيت نيتك الحسنة عن الناس فهي لم تغب عن علمه، وإذا أساء أحد فهمك وعجزت عن بيان ما في صدرك كفأك أن الله يعلمه. ما أعدل الحياة حين يكون الحكم الأخير لمن يعلم الظاهر والباطن جميعاً؛ إذ قد يمدح الناس فعلاً فاسد النية، ويذمون موقفاً لم يدركوا ضرورته، لكن الله لا يخلط بين الصفحات ولا تلتبس عليه الأصوات.

ثم بعد جلال العلم المحيط يأتي دفء الرحمة: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. لئلا يظن العبد أن كونه مكشوفاً أمام العلم الإلهي يعني أنه قائم أمام مراقبة مجردة من الرحمة؛ فالذي يعلم كل ضعفك هو الرحمن الرحيم. يعلم الذنب الذي أخفيت، ويعلم كذلك الندم الذي لم تستطع التعبير عنه، ويعلم كم مرة قاومت ثم ضعفت، وكم مرة أردت الرجوع فأعاقتك قيود صنعها بيدك. علمه لا يجعله يظلمك، ورحمته لا تجعله يسوي بين الإصرار والتوبة، بل يضع كل شيء في موضعه ويعامل عبادَه بفضلي لا تستوعبه أعمالهم.

﴿الرَّحْمَنُ﴾ ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت الخلائق، وظهرت آثارها في الخلق والرزق والإمهال والهداية؛ و﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي يوصل رحمته إلى من يشاء من عبادِه، ويخص المؤمنين برحمت الهداية والثبات والمغفرة والرضوان. ومن رحمة الله أنه عرّفك بنفسه، فلو ترك العقل وحده يتلمس في ظلمات الوجود ما عرف كيف يعبد ربه على بصيرة. ومن رحمته أنه أنزل القرآن الذي لو نزل على جبل لنحشع، لا ليحطم به الإنسان، بل ليقظه قبل أن يأتي الغد. ومن رحمته أنه أمرك بالحاسبة وأنت تستطيع الإصلاح، ولم يؤخر كشفك لنفسك إلى يوم لا ينفع فيه الندم.

وجمع الرحمة إلى التوحيد والعلم يحرر النفس من صورتين منحرفتين: صورة إله يطلب منه العطاء ولا يعبد ولا يطاع، وصورة يتخيلها الخائف عقوبة مجردة لا باب معها للرجوع. الله هو المعبود وحده، والعالم بكل شيء، والرحمن الرحيم. فلا تُغرك الرحمة بالتمادي، لأن العالم يعلم إصرارك، ولا يدفعك العلم المحيط إلى اليأس، لأن العالم هو الرحمن الرحيم. هكذا يبقى القلب بين مهابة لا تقنطه، ورجاء لا يخدعه، ومحبة تجعله إلى الطاعة.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

تكرر البداية: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، لأن القلب يحتاج إلى أن يعود مراراً إلى مركزه، ولأن الأسماء التي ستتوالى ليست صفات لذوات متعددة، بل كالات للمعبود الواحد. هو الرحمن الرحيم، وهو الملك القدوس السلام، وليس في أسمائه تضاد؛ فرحمته رحمة الملك القادر، وملكه ملك القدوس المنزه عن الظلم، وعزته عزة السلام الذي سلم من كل نقص، وجبروته جبر يقوم على العلم والحكمة والعدل. إن الإنسان حين ينظر إلى الصفات متفرقة قد يسقط عليها نقائص تجربته البشرية؛ يرى ملكاً فيتذكر ظلم الملوكة، ويرى عزة فيتخيل طغيان المتكبرين، لكن الله ليس كمثل شيء، وكل كمال في المخلوق محدود ناقص، أما كمال الخالق فطلق يليق بجلاله.

﴿الْمَلِكُ﴾؛ له الملك كله حقيقةً، وما في أيدي الخلق عارية مؤقتة. يملك السماوات والأرض، والأجساد والأرواح، والأموال والديار، والحاضر والغد، والموت والحياة. لم يصّر ملكاً بعد أن وجد العالم، بل خلق العالم وهو المالك قبل خلقه وبعد فئاته؛ لا يزيد في ملكه إيمان المؤمنين، ولا ينقص منه تمرد الكافرين. الملوكة في الأرض يملكون بعض الأشياء زمناً، ثم يخرجون منها كما دخلوا الدنيا حفاة لا يحملون مفاتيح خزائنها إلى القبور؛ أما الله فملكه لا يزول، وسلطانه لا يورث، وأمره لا يُراجع عند قوة أعلى، إذ لا أعلى منه.

وحين يعرف القلب ﴿الْمَلِكُ﴾ تتحرر فيه مساحة عظيمة من الخوف. فالذين يرهبهم الناس ليسوا ملوكاً على الحقيقة، بل عبيد تحت الملك، أنفاسهم محدودة، وأيامهم معدودة، وأسبابهم لا تعمل إلا بإذن الله. قد يملكون أذيتك، لكنهم لا يملكون أن يجعلوا الأذى خارج الحكمة الإلهية، وقد يمنعون عنك باباً، لكنهم لا يملكون خزائن الملك، وقد يخرجونك من دار، لكن الأرض كلها لله، وقد يأخذون مالاً، لكن رزقك ليس مكتوباً بأقلامهم. إن معرفة الملك لا تدعوك إلى إهمال الظلم، بل تمنع الظالم من أن يحتل في قلبك مقاماً لا يستحقه.

وإذا كان الله الملك، فالإنسان مستخلف لا مالك مطلق؛ وكلما قال عن شيء: «هذا لي»، جاء الموت ليصحح العبارة. كان لك استعماله زمناً، ثم انتقل إلى غيرك، وربما كنت أنت نفسك جزءاً من ميراث لم يخطر لصاحبه أنك ستملكه. لذلك لا ينبغي أن يقسو قلبك بسبب ملك مؤقت، أو تمنع حق الله في شيء أنت خارج منه لا محالة. الملكية البشرية مسؤولية قبل أن تكون امتيازاً، وسيسألك الملك الحقيقي: كيف اكتسبت، وكيف أنفقت، وماذا فعل المال بقلبك؟

﴿الْقُدُّوسُ﴾؛ المنزه عن كل نقص وعيب، المتعالي عن مماثلة خلقه، الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله. تنزه علمه عن الجهل، وحكمه عن الظلم، وحكمته عن العيب، ورحمته عن الضعف، وقدرته عن العجز. وإذا اضطرب فهمك أمام قضاء لم تدرك حكمته، فاستمسك باسم ﴿الْقُدُّوسُ﴾؛ إن العجز في رؤيتك، لا في حكمته، والنقص في إحاطتك، لا في تديره. أنت ترى جزءاً صغيراً من نسج القدر، ثم تريد أن تحكم على الصورة كلها، أما القدوس فيعلم الأطراف والمآلات وما يصلح الأرواح في دنياها وأخرها.

ومعرفة القدوس تدعو العبد إلى التطهر؛ ليس لأنه يستطيع بلوغ كمال الخالق، فذلك محال، وإنما لأنه يعبد القدوس فيحب الطهارة من الشرك والنفاق والغل والظلم. كلما ازداد قرباً من الله ضاق صدره بالدنس الذي كان يألفه، وصار الذنب عنده جرحاً في صفاء الصلة لا مجرد مخالفة قانونية. يطهر لسانه لأن القدوس يسمعه، ويطهر ماله لأن القدوس لا يقبل الخبيث، ويطهر نيته لأن عالم الغيب لا تتخذه الزينة.

﴿السَّالِمُ﴾؛ السالم من كل نقص وآفة، ومنه السلام والأمان، وهو الذي يسلم عباده من الظلم، ويدعوهم إلى دار السلام. كل سلام في الوجود أثر من عطائه؛ سلام الجسد من المرض، وسلام البيت من الفتنة، وسلام القلب من التمزق، وسلام الروح حين تجد ربها بعد طول التيه. والإنسان يبحث عن السلام في جمع الأشياء وإحكام الحصون، لكن السورة أرتنا أن الحصون قد تبقى قائمةً بينما يمتلئ القلب رعباً. السلام ليس غياب الخطر وحده، بل حضور الله في الصدر؛ فقد يكون العبد في قلب العاصفة، وفي داخله سكينَةٌ لا تملكها القصور.

ومن عبد السلام حقاً لم يكن مصدر رعبٍ للآمنين ولا جرحاً للضعفاء؛ يسعى إلى الإصلاح، ويكف أذاه، ويحمل إلى البيوت طمأنينةً لا توتراً. وليس السلام استسلاماً للظلم؛ لأن ترك الظالم يفتك بالناس حرباً على سلامهم. إنما السلام أن توضع القوة في خدمة العدل، وأن يكون رد العدوان مضبوطاً بحدود الله، فلا تتحول مقاومة الشر إلى شهوةٍ جديدة للشر.

﴿الْمُؤْمِنُ﴾؛ الذي يؤمن عباده، ويصدق رسله بآياته، ويصدق وعده، ويمنح القلوب المؤمنة أمنها الحقيقي. فهو الذي آمن عباده من أن يظلمهم، وكتب على نفسه الرحمة، ولا يخلف وعده. وإذا استوحش القلب من تقلب العالم لجأ إلى المؤمن؛ فالناس قد يعدون ثم يكذبون كما رأينا، والحلفاء قد يقولون: لننصركم، ثم يولون الأعداء، أما وعد الله فحق لا تنطرق إليه الخيانة. قد يتأخر تحقق ما فهمته أنت من الوعد، لكن وعد الله نفسه لا يتخلف، وإنما قد يخطئ الإنسان في فهم زمنه أو صورته أو شروطه.

والعبد المؤمن ينبغي أن يكون مأمون الجانب؛ يأمن الناس غدره، ويثقون بعهده، ولا يخشون أن يستعمل أسرارهم ضدهم. ما أفصح أن ينتسب المرء إلى الإيمان ويعيش الناس في خوفٍ من لسانه أو خيانتِه؛ فإن من آثار الإيمان بالله أن يصبح وجودك مساحةً آمنًا لا نخفُّ للقلوب.

﴿المُهَيِّمُنُ﴾؛ الرقيب الشهيد الحافظ المحيط، القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، لا يخرج شيء عن علمه وسلطانه. هيمنته ليست مراقبةً عاجزة ترى ولا تستطيع، بل إحاطة علم وقدرة وحفظ وتدبير. رأى المنافقين في خلواتهم، وسمع وعودهم السرية، وعلم أنهم كاذبون، وأحاط بما في صدور الأنصار من صفاء، وما في قلوب المهاجرين من ابتغاء الرضوان. لا تستطيع جدران السر أن تحجب شيئاً عن المهيمن.

وحضور هذا الاسم في القلب يصنع المراقبة، لكنه يصنع كذلك الطمأنينة. إذا كنت مظلوماً فالمهيمن لم يغيب، وإذا ضاع حَقُّك في أوراق الأرض فهو محفوظ في علمه، وإذا تأمر عليك من لا تستطيع الوصول إليهم فهم لم يخرجوا من سلطانه. لا يعني ذلك أن تترك الأسباب، بل أن تعمل دون أن يسحقك القلق؛ فما أنت بمكلف أن تكون مهيمناً على الكون، ولا أن تعرف كل ما يقال في غيابك، ولا أن تغلق كل ثغرة في مستقبلك. الله هو المهيمن، وفي الاعتراف بذلك راحة من محاولةٍ مستحيلة للسيطرة على كل شيء.

﴿الْعَزِيزُ﴾؛ الغالب الذي لا يُغلب، المتمتع الذي لا يُنال جنبه، والذي يعز من يشاء. بدأت السورة بهذا الاسم وعاد هنا، كأن العزة خيطٌ يمتد من تسبيح الوجود إلى خاتمة المعرفة. كان بنو النضير يظنون العزة في الحصون، والمنافقون يطلبونها في التحالفات، لكن العزيز أراهم أن القوة كلها له. والعزة بالله لا تعني التكبر على الخلق، بل التحرر من الذل للباطل؛ فكلما ازداد العبد عبوديةً للعزيز استغنى قلبه عن بيع نفسه في أسواق البشر.

﴿الْجَبَّارُ﴾؛ العالي القاهر الذي تفد مشيئته، والذي يجبر كسر عبادِه ويرد فقرهم برحمته. وفي الاسم من الجلال ما يقصم طغيان المتكبر، ومن الجمال ما يضمّد قلب المنكسر؛ فهو يجبر المظلوم بعد أن ظن أن جرحه لا يلتئم، ويجبر الفقير بما يغنيه، ويجبر التائب الذي أفسد ماضيه حين يبذل سيئاته حسنات، ويجبر القلوب التي نزعَتْ منها الأيام أشياء ظنت أنها لا تستطيع العيش بعدها. وما دام الله الجبار، فلا كسر يستعصي على جبره، ولا قوة تتمرد على قهره.

أما الإنسان إذا تجبر بغير حق فقد نازع معنى لا يليق بضعفه؛ يتعالى وهو مخلوق من تراب، ويمشي في الأرض كأنه لا يمرض ولا يموت، ويكسر القلوب ثم ينسى أن الجبار يراها. وكل تجبر بشري يحمل فيه نهايته، لأن صاحبه يحاول أن يبيّن صورةً أكبر من حقيقته، ولا بد للحقيقة أن تظهر.

﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾؛ المتعالي عن كل نقص، العظيم الذي له الكبرياء حقاً، ولا يليق الكبر المطلق إلا به. كبرياء الله كمال، لأنه العظيم على الحقيقة، أما كبر الإنسان فكذبٌ على حقيقته؛ إذ يتضخم في شعوره وهو عاجز عن رد شيخوخة أو دفع موت أو خلق ذرة. حين يتكبر العبد لا يصبح أكبر، بل يفقد قدرته على رؤية حجمه، فيعيش داخل وهم سرعان ما تصدعه الوقائع.

إن معرفة المتكبر تسحق في القلب غرور المقارنة؛ فلا يعود الإنسان محتاجاً إلى احتقار الآخرين كي يشعر بقيمته، لأن قيمته في عبوديته لله لا في ارتقائه على عبادته. يتواضع لا لأنه ينكر ما وهبه الله من فضل، بل لأنه يعرف مصدر الفضل، ويعلم أن النعمة التي يتكبر بها قد تُنزع في لحظة، وأن من يزدريه اليوم قد يكون عند الله أعلى منه مقاماً.

ثم تأتي كلمة التنزيه: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. تنزه الله عن الشريك، وعن كل تصور ناقص، وعن أن تشبه صفاته صفات المخلوقين. لا ملك كملكه، ولا سلام كسلامه، ولا عزة كعزته، ولا جبر كجبره، ولا كبرياء ككبريائه. وكل ما أشرك به الناس من حجر أو بشر أو هوى أصغر من أن يقف لحظة في مقام المقارنة. فالمعبودات الزائفة تحتاج إلى من يحرسها، أما الله يحرس ولا يُحرس، وتحتاج إلى الطعام والزمان والمكان، أما الله الغني عن العالمين، ترتفع حين يرفعها أتباعها وتسقط حين يتركونها، أما الله فكان قبل الخلق ولا يزال بعد فناءهم.

وكأن السورة بهذه الأسماء تهدم الحصن الأخير: حصن التصور الناقص عن الله. فقد يخرج الإنسان من عبادة المال، لكنه يظل يحمل في قلبه صورةً ضعيفةً عن قدرة الله، أو صورة قاسيةً مجردةً عن رحمته، أو تصوراً يجعله شبيهاً بخلقه. فجاء موكب الأسماء ليعيد بناء المعرفة على الوحي: ملكٌ قدوس، سلامٌ مؤمن، مهيمٌ عزيز، جبارٌ متكبر، جلالٌ لا يظلم، وقوةٌ لا تعجز، ورحمةٌ لا تنقص الهيبة، وقربٌ لا يشبه قرب المخلوقين.

الآية الرابعة والعشرون: من سرّ الخلق إلى تسبيح الوجود كله

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

تبلغ السورة خاتمتها، ولكن الخاتمة تعيدنا إلى البدء، بدأت بقوله: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وتنتهي بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. في البداية جاء التسبيح بصيغة الماضي، وفي النهاية بصيغة المضارع، فكأن التسبيح قد كان ولا يزال، وأن الوجود بين ماضٍ مسيح وحاضرٍ يتجدد فيه التسبيح؛ فلا تمر لحظة على الكون إلا وهي محاطة بتمجيد الله. أحداث البشر تأتي وتمضي، والحصون تبنى ثم تسقط، والأموال تنتقل من يد إلى يد، والأجيال تتعاقب، لكن نشيد العبودية الكوني لا ينقطع.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾؛ الخالق الذي أوجد الأشياء بتقدير وعلم، لا عن حاجةٍ إليها، ولا عن مادةٍ مستقلة تنازعه. أخرج الوجود من العدم، وقدر لكل شيء طبيعته وأجله ورزقه ووظيفته. الإنسان يصنع من شيء موجود، ويحتاج إلى أدوات وقوانين لم يخلقها، وقد يفشل فيما يصنع؛ أما الله فيخلق ما يشاء كما يشاء، لا يعجزه شيء، ولا يستعين بأحد. وكل ما فيك من جسد وعقل وقدرة على الكلام وخيالٍ يبدع المعاني هو أثر من خلقه.

وحين تعرف الخالق تعرف أنك لم تأت إلى الوجود سهواً، وأن ذاتك ليست حادثاً بلا معنى. الذي خلقك بعلم لم يتركك بلا غاية، والذي ركب فيك هذه القوى لم يجعلها عبثاً. قد تجهل بعض تفاصيل رسالتك، وقد تضطرب أمام منعطفات الطريق، لكن أصل وجودك مقصود في علم الله، وعبوديتك له هي المعنى الجامع الذي ينتظم أدوارك كلها. تعمل وتكتب وتبني وتحب وتواجه، لا لتصنع لنفسك خلوداً أرضياً، بل لتعبد الخالق بما وهبك، ثم تعود إليه بما قدمت.

ومعرفة الخالق تحرر الإنسان من احتقار نفسه ومن تأليهها معاً. لا يحتقرها لأنها صنعة الله المكرمة، ولا يؤهلها لأنها مخلوقة فقيرة. يعترف بما فيها من استعداد للخير والشر، ويربها على مراد صانعها، فلا يتركها للشهوة تزعم أن الحرية في الانفلات. إن الشيء لا يعرف تمام وظيفته بعيداً عن حكمة من أوجده، والقلب لا يجد قانونه الأخير في رغباته المتقلبة، بل في وحي خالقه الذي يعلم ما يصلحه.

﴿الْبَارِئُ﴾؛ الذي أوجد الخلق على تقديرٍ محكم، وميّز بعضهم من بعض، وأبرزهم إلى الوجود سالمين على ما شاء من التكوين. وفي الاسم معنى الإبداع والإيجاد المتسق المنزه عن التفاوت والعبث. انظر إلى هذا التنوع الذي لا يفسد الوحدة: وجوه لا تكاد تتطابق، وأصوات تحمل لكل إنسان نبرته، وبصمات تميزه، ونفوس تختلف في المواهب والمداخل، ومع ذلك تنتظم الحياة بقوانين واحدة. لقد خلق الله الإنسان فرداً لا نسخةً زائدة، وأعطاه من الخصوصية ما يجعله مسؤولاً عن المساحة التي لا يملؤها غيره بالطريقة نفسها.

فلماذا يبدد الإنسان عمره في تقليد صورة لم يُخلق ليكونها؟ ولماذا يقيس قيمته بموهبة أعطيت لغيره، وينسى النعمة التي وضعت في يده؟ الإيمان بالبارئ يدعوك إلى أن تكتشف تكليفك داخل تكوينك، وأن تشكر الاختلاف بدل أن تحوله إلى حسد. ليست الحكمة أن يكون الناس جميعاً على هيئة واحدة، بل أن تتجه اختلافاتهم إلى خدمة الحق، كما تختلف أعضاء الجسد وتتعاون على حياة واحدة.

وفي اسم البارئ كذلك نداء إلى البراءة من الأوثان التي تشوه الفطرة؛ فالذي برأك هو الأعم بما يظهره، وكلما عدت إليه تحررت من الطبقات التي ألصقتها بك الشهوات ونظرات الناس. قد يقول لك العالم إن قيمتك في إيتاجك، ويقول الهوى إنها في لذتك، ويقول الكبر إنها في تفوقك؛ أما خالقك فيقول إن كرامتك في عبوديتك وتقواك. وكم يحتاج الإنسان إلى أن يبرأ من التعريفات التي حاصرت، ويعود إلى التعريف الذي جاءه من السماء.

﴿الْمُصَوِّرُ﴾؛ الذي أعطى كل مخلوق صورته التي شاءها، وهياً أعضائه وصفاته لما قُدر له، وصور الإنسان في أحسن تقويم. لا تعني الصورة الشكل الخارجي وحده، بل الهيئة والخصائص والتركييب الدقيق الذي يجعل المخلوق ما هو عليه. في قطرة لا تكاد ترى كُتبت بإذن الله ملامح الجسد، ثم انتقل الإنسان من طور إلى طور حتى خرج إلى الدنيا بوجه لم يسبق له مثيل على التفصيل ذاته. والعين التي تنظر بها لم تصنع قدرتها على الإبصار، واللسان الذي يعبر عنك لم تختار أنت بنيته، والقلب الذي يحمل تاريخك بدأ نبضه قبل أن تعرف معنى الاختيار.

وإذا كان الله هو المصور، فلا يجوز أن تتحول الصورة إلى مجال اعتراض على حكمته أو احتقار لصنعه. ليس الجمال الذي صنعه الأسواق هو المقياس النهائي لكرامة الإنسان؛ فكم من صورة جذبت الأبصار وخلفها قلبٌ موحش، وكم من وجه عادي في موازين الناس يشرق عند الله بنور الطاعة. العناية بالجمال من الفطرة، لكن المأساة أن يصير الشكل معبوداً يجلد الإنسان نفسه كل يوم لأنه لا يطابق قالباً صنعه البشر. لقد صورك الله لتكون عبداً يعرفه، لا صورةً تطلب طوال عمرها إذناً من عيون الآخرين كي تشعر أنها تستحق الوجود.

والله المصور لا يُتصور بصورة، تعالى عن مشابهة خلقه؛ فهو الذي خلق الصور والأشكال والحدود، فلا تحيط به صورة ولا يجري عليه ما يجري على الأجسام. ثبت له ما أثبتته لنفسه

على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكيف، ونزله الله عن أوهام الخيال التي تستمد مادتها من عالم المخلوقات. فكل صورة يستطيع الذهن تركيبها مأخوذة من شيء مخلوق، والله أعظم وأجل من أن تحيط به أوهام خلقه.

ثم تجمع الآية هذا النور كله في قوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. له وحده الأسماء البالغة في الحسن غايته، لأنها تدل على ذات كاملة وصفات كمال لا نقص فيها بوجه. ليست الأسماء الحسنى ألفاظاً للتبرك المجرد، بل أبواب معرفة، وكل اسم منها يطالب القلب بعبودية تناسبه. فإذا عرفت الرحمن رجوت، وإذا عرفت القدوس تطهرت، وإذا عرفت السلام طلبت سلامة القلب، وإذا عرفت المهيمن راقبت، وإذا عرفت العزيز لم تدل للباطل، وإذا عرفت الجبار حملت كسرك إليه، وإذا عرفت الخالق عبدته، وإذا عرفت الحكيم اطمأنت إلى تدبيره.

ولا يكفي أن تحفظ الأسماء مرتبةً ثم تبقى الحياة خاليةً من آثارها؛ فرب حافظ لاسم الرزاق يذل نفسه عند أبواب الخلق، وحافظ لاسم الرقيب يطلق جوارحه في الخلوة، وحافظ لاسم الغفور يقتنط من توبته، وحافظ لاسم العدل يظلم من تحت يده. المعرفة التي يريدّها القرآن معرفةً تنزل إلى موضع القرار، فتعيد تشكيل الخوف والرجاء والحب والسلوك. ليست الغاية أن تملك قائمةً من الأسماء، بل أن تملك الأسماء قلبك، فتنتقل بك من عبودية الأشياء إلى عبودية الله.

و﴿الْحُسْنَى﴾ ليست فقط جميلة في وقعها، بل حسنة في معانيها وآثارها؛ فلا اسم من أسماء الله يشتمل على ظلم أو عبث أو نقص. حتى أسماء الجلال التي ترتجف لها القلوب هي من الحسن، لأن الكون بلا عدل يعاقب الظالمين سيكون وحشةً لا تطاق، ولأن قوةً تهجي الحق رحمةً بالمستضعفين. فشدّة العقاب ليست مناقضةً للرحمة حين تقع في موضعها، وعزة الله ليست مناقضةً لقربه، وكبرياؤه ليس ككبر المخلوق، بل هو كمال يليق بمن له الكمال كله.

ثم تتسع الصورة حتى تشمل الكون: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. لا يسبح له المؤمنون وحدهم، ولا أهل الأرض وحدهم، بل كل ما في السماوات والأرض. الكواكب التي لا تبلغها عيوننا، والذرات التي لا تراها، والبحار في أعماقها، والطيور في مساراتها، والأشجار في صمتها، والملائكة في عبادتها، جميعها في موكب التسبيح. قد لا نفقه كيفية تسبيحها، لكن جهلنا بلغتها لا يحول صمتنا عنها إلى صمت فيها. الوجود أكثر عبادةً مما نسمع أذاننا، وكل ما حولك يذكرك بأنك لم تخلق لتكون الاستثناء الغافل في كون ذا كرم.

وجاء المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾ ليدل على التجدد والاستمرار، فالتسبيح ليس حدثاً مضي، بل فعلٌ يجري الآن بينما تقرأ هذه الكلمات. في هذه اللحظة تعبر نجوم مداراتها بأمره، وتفتح زهرة أوراقها على مقدار، وتدور في جسدك أنظمة لا تحصيها، وكلها تشهد بتزدهن الخالق وكماله. ما أضيق الإنسان حين يظن نفسه مركز الوجود، وما أرحب قلبه حين ينضم إلى التسبيح

الكوني، عندئذ لا يعود الذكر مهمةً ثقيلةً يؤديها وحده، بل استجابةً للفطرة الكبرى التي ينتظم فيها كل شيء.

وتعود السورة إلى الاسمين اللذين بدأت بهما: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. كأن الرحلة كلها كانت شرحاً لهما. العزيز الذي أخرج الذين ظنوا أن حصونهم مانعهم، والحكيم الذي أجرى الإخراج بمقدار. العزيز الذي أفاء الأموال من غير إيجاف خيل ولا ركاب، والحكيم الذي منعها أن تكون دولةً بين الأغنياء. العزيز الذي كشف كذب المنافقين، والحكيم الذي ضرب بهم مثل الشيطان. العزيز الذي أمر القلب بالتقوى، والحكيم الذي دعاه أن ينظر فيما قدم لغده. العزيز الذي لو نزل كلامه على جبل لتصدع، والحكيم الذي ضرب المثل للناس لعلهم يتفكرون.

عزة الله تمنحك الثقة بأن الباطل مهما تمدد لا يخرج عن سلطانه، وحكمته تمنعك من استعجال صورة النصر التي تريدها. فقد يهدم العزيز حصناً، وقد يؤخر سقوطه لحكمة؛ وقد ينصر الحق بانهار خصمه، وقد ينصره أولاً ببناء أهله من الداخل. أنت ترى لحظةً، والحكيم يرى الطريق كله؛ وتطلب نتيجةً، وهو يعلم ما تصنعه النتيجة بك قبل أن تصل إليك. لذلك يكون التوكل الصحيح جمعاً بين الثقة بعزته والرضا بحكمته: لا تيأس لأنه عزيز، ولا تعترض لأنه حكيم.

هكذا تنتهي سورة الحشر من حيث بدأت: الوجود يسبح لله، والله هو العزيز الحكيم. وبين البداية والنهاية مررنا على حصونٍ ظن أصحابها أنها تمنعهم من الله، فإذا بالرعب يدخل من داخل صدورهم، وعلى بيوتٍ بناها أهلها ثم هدموها بأيديهم، وعلى أموالٍ أعاد الوحي توزيعها كيلا تتحول الثروة إلى نهرٍ مغلقٍ يدور بين الأغنياء، وعلى مهاجرين خرجوا من الديار ولم يخرج اليقين من قلوبهم، وأنصارٍ تبوؤوا الإيمان حتى اتسعت صدورهم قبل بيوتهم، ومؤمنين جاؤوا من بعدهم يحملون دعاءً يظهر التاريخ من الغل، ومنافقين بنوا تحالفاتهم من كلماتٍ سقطت عند أول اختبار.

ورأينا كيف يبدأ الخراب الحقيقي حين يظن الإنسان أن الحصن يغنيه عن الله، وكيف تبدأ النجاة حين يرى كل ما عنده أمانة من الله. ورأينا أن الفقر قد يجتمع مع الغنى الداخلي، وأن الغنى قد يسكن قلباً أفقره الشح، وأن الجماعة قد تملأ الأبصار وهي قلوب شتى، وأن أفراداً مختلفين قد يصبحون قلباً واحداً إذا جمعهم الإيمان. ورأينا الشيطان وهو يأمر ثم يتبرأ، والمنافق وهو يعد ثم يخذل، والمؤمن وهو يؤثر مع الخصاصة ويدعو لمن سبقه بالإيمان.

ثم وقفت السورة بالإنسان أمام غده: ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُمْ فَلَمَّا قَدِمَتْ لَعْنَةٌ﴾، فلم تتركه يختبئ في زحام الجماعات ولا خلف أخطاء الآخرين. قالت له إن نسيان الله لن يمنحه نفسه، بل سيسلبها منه؛ وإن أصحاب النار وأصحاب الجنة لا يستون؛ وإن القرآن الذي يمر على قلبه كل يوم أثقل من أن يمر بلا أثر، حتى إن الجبل لو تلقاه خاشعاً لتصدع من خشية الله.

وعند الجبل المتصدع فتحت أبواب الأسماء: الله، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام المؤمن المهيم العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور، صاحب الأسماء الحسنى. كأن السورة تقول: لن تعرف حقيقة الحصن حتى تعرف العزيز، ولن تعرف حقيقة المال حتى تعرف الملك، ولن تتخلص من الغل حتى تعرف الرحمن الرحيم، ولن تطمئن في اضطراب التحالفات حتى تعرف المؤمن المهيم، ولن تفهم اختلاف الصور حتى تعرف المصور، ولن ترضى بتدبير الطريق حتى تعرف الحكيم.

إن «الحشر» ليس فقط جمع قوم إلى موضع خروجهم، ولا اسماً لحادثة في تاريخ المدينة، بل هو حركة معنوية تجمع شتات القلب على الله. لقد كانت النفس موزعة بين خوفها وشحها وغلبها وغدها وحصونها، فجاءت السورة تحشرها من أطراف العالم إلى مركز التوحيد. وكلها عرف القلب الله اجتمعت أجزاؤه؛ لأن الرغبات المتفرقة تجد ميزانها، والخواف المتكاثرة تعود إلى حدودها، والآمال الصغيرة تنتظم تحت الرجاء الأكبر. أما حين ينسى الله، فإنه ينسى نفسه، ويصبح قلبه شتى ولو بدا للناس متماسكاً.

فلا تسأل بعد سورة الحشر: أين حصون بني النضير وحدها؟ بل اسأل: أين حصني الذي وثقت به أكثر مما ينبغي؟ ولا تسأل: كيف كذب المنافقون في وعودهم؟ بل اسأل: كم وعدا في حياتي لم يصدقه الفعل؟ ولا تقف طويلاً مع إيثار الأنصار معجباً، بل فتش عن شخ نفسك، وانظر أي شيء تستطيع أن تقدمه لإخوة الإيمان. ولا تقرأ دعاء اللاحقين بلسانك فقط، بل طهر قلبك ممن حملت عليهم الغل حتى لا يصير خصمك ساكناً في صدرك أكثر من ذكر ربك.

وإذا بلغت الجبل، فلا تعجب من تصدعه قبل أن تتعجب من قلبك: كم مرة مر عليه القرآن ولم ينكسر فيه صنم؟ وكم مرة سمع عن الغد ثم عاد إلى يومه كأنه خالد؟ اجلس بين يدي القرآن جلسة من يعلم أن المتكلم هو الملك القدوس، وأن الكلمة ليست نصّاً بعيداً، بل خطاباً يعرف موضع الجرح فيك. دعه يقطع من قلبك ما يحتاج إلى القطع، ويترك قائماً على أصوله ما يصلح للثمر، دعه يهدم بيوت الوهم، ويقيم مكانها بيتاً من التقوى، ويفتح في صدرك مساحةً للمهاجر والمنكسر والفقير، ويغسل منه الغل والشح والنفاق.

ثم اخرج من السورة وأنت تسمع الكون من حولك يسبح، لا لأن الأشياء بدأت الآن ذكرها، بل لأن قلبك بدأ الآن يسمع. سترى الجدار أقل صلابةً مما كنت تظن، والمال أقل بقاءً، ومدح الناس أقل قيمةً، وغد الآخرة أقرب، واسم الله أعظم. وحين يقول العالم لك: احتم بما تملك، ستقول روحك: الله هو الملك المهيمن. وحين يقول الخوف: لا مخرج، ستذكر العزيز. وحين يقول الذنب: لا عودة، ستذكر الرحمن الرحيم. وحين يقول الكسر: لن تبرأ، ستذكر الجبار. وحين تتعدد الطرق ولا تعرف الحكمة، ستسلم أمرك إلى الحكيم.

وهكذا لا تنتهي سورة الحشر عند آخرة، بل تبدأ آثارها حين يغلق المصحف: في نظرتك إلى المال، وفي موقفك من الضعيف، وفي صدق وعودك، وفي طهارة صدرك، وفي محاسبة يومك، وفي استعدادك لغدك، وفي معرفتك بالله. فإذا صنعت فيك شيئاً من ذلك، فقد نزل القرآن على القلب؛ وإذا تصدع فيك شيء من الكبر، فقد بدأ الجبل الداخلي يخشع؛ وإذا انضم قلبك إلى تسبيح السماوات والأرض، فقد وجدت موضعك الحقيقي في الوجود: عبداً فقيراً يسير بين آثار الأسماء الحسنى إلى الله، العزيز الحكيم.